الثقافة والتعليم فى قرطاجة

الدكتور
عبد العزيز حجازى

الثقافة والتعليم فى قرطاجة

شهدت منطقة شمال غرب إفريقيا فترة من الوقت كانت فيه قرطاجة إحدى صور الثقافة والتعليم فى تاريخ المنطقة القديم من814 ق.م إلى 146ق.م.وهذه الدولة التى نحن بصدد الحديث عنها كانت قد تعاملت مع دول البحر المتوسط بأشكال متنوعة على حسب المصالح الاقتصادية والسياسية التى تربطها بهم. وهذه العلاقات كانت تحتاج من قرطاجة أن تكون على نفس مستوى هذه الدول من الثقافة والتعليم حتى تستطيع أن تساير تلك الدول فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، فالتعليم هو مصدر المعرفة التى من خلالها تستطيع الدولة أن تستمر قوية بحق فى جميع المجالات، ويضاف إلى هذا أن الثقافة هى إحدى علامات التقدم الفكرى ومقياس لاغنى عنه لمقدرة الدولة فى وسط محيط من التيارات الفكرية فى الفترة موضع الدراسة.

والباحث عن الثقافة والتعليم فى قرطاجة يجد صعوبة كبيرة قد تكون مختلفة عن صعوبات أى بحث تاريخى. و يرجع السبب فى ذلك إلى أن البحث متعلق بدولة كانت من أكبر الدول فى حوض البحر المتوسط ولكنها تعرضت للتدمير الشامل على يد الرومان فى نهاية الحرب البونية الثالثة عام 146 ق.م. وهذه هى الصعوبة فأغلب ما كتب عن الدولة وتاريخها قد ضاع مع ما تم تدميره، وكل المعلومات التى توجد فى المصادر القديمة هى مصادر أجنبية عن قرطاجة أو بمعنى آخر هى مصادر كتبها اليونان والرومان وهم خصوم لهذه الدولة؛ ولكن الرغبة التى تلازم الباحث فى التعرف على أسباب قوة هذه الدولة واستمرارها قد يجدها فى أشياء كثيرة من بينها بالضرورة الثقافة والتعليم. وأهم ما فى ذلك أن أغلب الدول التى كانت تصارع قرطاجة كانت حريصة بشكل واضح على

نقل المعارف القرطاجية التى كانت تتعلق بالزراعة والملاحة وهذا مسجل فى المصادر التى كتبت عن هذه الفترة وسيأتى ذكره فيما يلى من هذه الدراسة.

وسوف أتناول بالدراسة الموضوعات المرتبطة بالبحث، ومن بينها اللغة الفينيقية التى انتقلت إلى شمال إفريقيا وكانت الأداة القوية التى من خلالها أمكن التعرف على مظاهر الثقافة الفينيقية وأماكن انتشارها فى حوض البحر المتوسط، وتأثر الآداب اليونانية واللاتينية بها، كما أتناول بالدراسة نقطة من أهم النقاط التى تلقى الضوء على المكونات الأساسية للثقافة القرطاجية وهى المكتبة، التى ضاعت مع التدمير الأخير للدولة، وسوف أتناول أيضا التعليم بالدراسة طبقا لما توافر عنه من معلومات فى المصادر التاريخية اليونانية واللاتينية، والتى وردت على شكل إشارات عن موضوعات قد تكون بعيدة عن التعليم لكنها أفادت فى التعرف على مكونات الطابع التعليمى فى قرطاجة.

اللغة الفينيقية:

كانت الحروف الفينيقية هى الأصل الذى أخذ الإغريق عنه أبجديتهم وعن هؤلاء أخذ الاتروسك، ثم جاءت الحروف اللاتينية التى أصبحت حروف الكتابة لأكثر الدول الأوربية منذ العصور الوسطى، ولم يكن نشر الكتابة والأبجدية هو الفضل الأوحد للفينيقيين ولكنه كان أهمها[1] ومن التراث الأدبى الذى تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيرا من تراثهم وأدخلوه فى كتاباتهم المقدسة[2].

وكان من الطبيعى أن تكون اللغة الفينيقية قد انتشرت فى شمال غرب إفريقيا وغرب البحر المتوسط بوجه عام منذ نهايات الألف الثانى قبل الميلاد. وتزودنا اللغة البونيه وهى المأخوذة عن الفينيقية بالكثير من المعلومات عن انتقال الثقافة الفينيقية من الشرق إلى الغرب، ويمكننا أن نلاحظ قوة كل من الكتابة واللغة والاستقرار بدليل استمرار وبقاء الخط الفينيقى القديم واتساع استخدامة فى كافة أنحاء العالم الفينيقى[3]. وتجدر

(1) أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، القاهرة1984، ص118.

(2) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت1984، ص63.

(3) Harden.D.,*The Phoenicians*,London 1950. P 20 Moscati.S.,*The World of the Phoenicians* London 1968,p185.

الإشارة إلى أن الرومان كانوا يطلقون على القرطاجيين اسم البونيين وانسحبت هذه التسمية على كثير من الأمور مثل الحروب البونية والثقافة البونية وقد تكون هذه التسمية خاصة بالرومان، أما الإغريق فكانوا ملتزمين بالتسمية المعروفة وهى الفينيقيون سواء للشرقيين منهم أو من هم فى غرب البحر المتوسط، ومنها كانت اللغة الفينيقية أو الثقافة الفينيقية وهى أشمل وأوسع زمنيا ومكانيا ويدخل مسمى البونى ضمن ما تقصده لفظة فينيقى.

وقد وجدت الكلمات الفينيقيـــة فى الآداب الإغريقية واللاتينيـــة مثلها فى هذا مثل المصرية والاكدية والعبرية[1] وظلت الفـــينيقية تسود فى مدن شمال إفريقيا حتى زمن القديس أوجستين St.Augustineأسقف مدينة هيبو ريجيوس Hippo Regius فى القرن الخامس الميلادى وظلت مستخدمة أيضا حتى القرن السادس الميلادى من جانب البيزنطيين فى شمال إفريقيا[2].

وظلت اللغة البونية استمرارا للفينيقية والفرق بينهما هو التطور الذى دخل على اللغة التى ظلت مستخدمة حتى بعد سقوط قرطاجة فى عام 146 ق.م على يد الرومان[3] تحت اسم اللغة البونية الجديدة[4]. ولعل السبب المباشر فى استمرار اللغة البونية باسم البونية الجديدة جاء نتيجة انتشار الفينيقيين فى كل إفريقيا واختلاطهم بالسكان المحليين وبالرغم من أن اللغة كان قد دخلت عليها بعض التغيرات إلا أنها ظلت مستخدمة فى الحفلات الرسمية والطقوس الدينية رغم سقوط الدولة وهذا دليل على قوة اللغة والثقافة الفينيقية فى شمال إفريقيا. ومن بين أسباب استمرار اللغة الفينيقية فى شكلها الأخير[5] هو قرار الرومان إقامة مستعمرة فى موضع قرطاجة (فترة الأخوين جراكوس)، وعلية فقد عاد للغة والكتابة القرطاجية شيوعها وعرفت كتابتها باسم البونية الجديدة وظلت هذه

---

(1) Harden.D .op.cit.pp.20,105 .

(2) هارولد لام، هانيبال، ترجمة رشدى السيسى، القاهرة1962، ص 320.

(3) سليمان عبد الرحمن الذييب، الاوجاريتيون والفينيقيون، الجمعية التاريخية السعودية، العدد السابع عشر، الرياض2004، ص 76.

(4) Desanges.J.,*The Proto-Berbers*,General History of Africa.2.Unesco 1981,p.461.

(5)Fage.T.D.,*The Cambridge History of Africa.vol.2.*, Cambridge 1973.p203.

الكتابة مستعملة حتى التاريخ الميلادى كما سبقت الإشارة ولكن بعد أن تعرضت لبعض التعديلات البسيطة التى أدخلت عليها فى فترات متعاقبة[1] يضاف إلى ذلك احد الأسباب وهو أن اللغة البونية ظلت لغة الوظائف فى عدد كبير من مدن شمال إفريقيا حتى أثناء القرن الأول الميلادى.

ومن المؤكد أن استخدام اللغة البونيـة فى شمال إفريقيا لم يقتصر على المدن القرطاجية فقط وإنما انتشر فى كافة المدن الاخرى تقريبا، إذ كانت لغة الحديث والمعاملات إلى جانب استخدامها فى الوظائف الرسمية. وأقبل على تعلمها عدد كبير من السكان فضلا عن النوميديين حتى بعد سقوط قرطاجة. وتشير المصادر إلى استمرار اللغة القرطاجية حيث استخدمت فى الطقوس الدينية والوظائف الرسمية والحفلات العامة فى أغلب المناطق التابعة لقرطاجة داخل إفريقيا [2] ولدينا احد النماذج على ذلك عندمـا تولى احـد أفراد أسرة الملك ماسينسا Massinissa[3]عرش نوميديا وهو الملك غودة Gaudaثم خلفه ولده همبســال الثانى Hiempsal II الذى خلعه أحد أفراد الأسرة ثم أعيد إلى الحكم من 106ـ 60 ق.م ومن المعروف انه ألف كتبا عن إفريقيا باللغة البونية، وهو لا يختلف فى هذا عـن الخط الحضارى لأفراد أسرته فجميعهم تقريبا استخدموا اللغة البونية بشكل واضح[4] ولعل ما تجدر الإشارة إليه أن كان هناك قدر من الوحدة الثقـافية فى كل أنحاء المغرب، غير أن كل من اللغتين الليبية والبونية الجديدة استسلمتـا كلغتى كتابة للغة اللاتينية فى العصر الرومانى واستخدمت صيغة من البونية فى الحديث ظلت واسعة الانتشار فى العصر الرومانى المتأخر، ولكن من الصعب أن نحدد وضع اللغة الليبيـة ومدى انتشارها كلغة تخـاطب[5] على الرغم من أن الأبجدية الليبيــة مأخوذة من

---

(1) كونتنو.ج.، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة 1948، ص352
Hardden.D., op.cit.p.68.

(2)Warmington.B.H.,op.cit.pp306-307.

(3) الملك ماسينسا: أحد ملوك مملكة نوميديا، ولد فى حدود عام228ق.م عاش حتى بلغ الثمانين من عمره وكان يتمتع بصحة جيدة، حكم ما يقرب من ستين عاما، ترك عند موته طفلا فى الرابعة يسمى سثمبانوسSthembanus كان من حلفاء قرطاجة لكنه انقلب عليها وتحالف مع الرومان توفى فى عام 148 ق.م .polybius.xxxvi.16.2-10.

(4) محمد بيومى مهران، المغرب القديم، الإسكندرية 1990، ص292.

(5) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص287.

الأبجدية الفينيقية.[1] وفى إقليم طرابلس بليبيا عثر على عدد كبير من النقوش المكتوبة باللغة البونية الجديدة ولكن بحروف لاتينية. ولعل اللغة البونية الجديدة كانت إلى حد ما لغة المجتمعات الليبية المحلية فى هذه المناطق البعيدة عن الساحل والتى كان يتكون منها سكان أهل الثغور، ومن أبرز المواقع التى عثر فيها على نقوش من هذا النوع جرزة وهى موقع من العصر الرومانى فى وادى زمزم، ومزرعة محصنة فى وادى مردم، وبئر (دريدر) الذى عثر فيه على أربعين نقشا، كان بعضها يعلو بوابات المزارع الحصينة أو الأضرحة، ومن المرجح أن غالبية هذه النقوش يرجع إلى فترة متأخرة عن بداية القرن الثالث الميلادى. والذى يهمنا فى هذه الدراسة أن هذه النقوش مكتوبة بأبجدية بونية، وقد يفسر ذلك بأن الكثيرين من الليبيين استمروا يستخدمون اللغة البونية الجديدة التى لابد قد تأصلت فيهم إلى الحد الذى لم يسمح باستعمال اللاتينية.وإذا كانت بعض العناصر الليبية قد أقبلت على الأخذ بأسباب المدنية الرومانية واستعمال اللغة اللاتينية فإن ذلك لا يعنى أن جموع الليبيين قد تخلوا عن اللغة البونية، ولعل هذه اللغة الفينيقية كانت قد احتفظت بمكانتها فى مدن الساحل حتى إن بعض النقوش فى لبدة كتبت بالبونية، وهذه النقوش لها طابع رسمى إذ إنها تتعلق بموظفين رسميين فى بلدية المدينة، وهذا يرجح أنها كانت اللغة الرسمية الثانية بعد اللغة اللاتينية على الأقل فى عصر أغسطس، وحتى لو فرضنا أن اللغة البونية كانت قد فقدت بعض مكانتها فى المناطق الساحلية أمام اللاتينية إلا أننا لا نستطيع أن نسلم باختفائها تماما بعد القرن الأول، وقد يمكن القول إن اللغة البونية استطاعت أن تحتفظ بكيانها فى المناطق الداخلية.[2]

وليس أدل على قوة تأثير الثقافة المزدوجة من أن استخدام اللغة البونية الجديدة فى النقوش قد استمر حتى القرن الثانى الميلادى، وأنه طوال نفس الفترة إنما ظل لقب شوفيت Suffet[3] وهو الاصطلاح السياسى القرطاجى الذى نقله لنا الكتاب الرومان،

(1) أندريه ايمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام (روما وإمبراطوريتها)، نقله إلى العربية فريد داغر وفؤاد ابو ريحان، بيروت 1994، ص 63.

(2) مصطفى كمال عبد العليم، دراسات فى تاريخ ليبيا القديم، بنغازى 1968، ص ص 98-99.

(3) الأصل الفينيقى للكلمة هو سوفيس sophes والشكل اللاتينى لها هو sufes بمعنى القاضى أو الرئيس الأعلى للإدارة فى قرطاجة بالذات (الجمع sufetes). راجع عبدالعزيز حجازى البحرية القرطاجية، دراسة فى دورها الحربى ومقوماته وعلاقاته دكتوراه غير منشورة، القاهرة 1985، ص 144.

مستخدما على الأقل فى ثلاثين مدينة مختلفة من أقصى المنطقة إلى أقصاها من وليلى فى غرب مراكش إلى لبدة(لبكس ماجنا)agnaLptis M فى ليبيا.[1]

ويشير المؤرخ بوليبيوس إلى أن المراسلات بين هسدروبعل وسيفاكس xSypha أحد ملوك نوميديا زمن الحرب البونية الثانية كانت كثيرة وهذا أمر طبيعى خصوصا إذا كانت تتعلق باستعداد سكيبيو(P.Cornelius Scipioالمعروف بالإفريقى) لمواجهة هانيبعل[2] والموقف هنا يتعلق باللغات المستخدمة بين هذه الأطراف فى هذه الفترة وغيرها، فنحن أمام اللغة البونية لغة هسدروبعل القرطاجى والليبية أو البونية لغة سيفاكس النوميدى[3] واللاتينية لغة سكيبيو الرومانى، إذن هناك عدة دلالات تكمن فى طيات نص بوليبيوس أولها أن هذه المراسلات كانت بصحبة مترجم أو يكون كل طرف على علم بلغة الطرف الآخر، فإذا كان الاحتمال الأول هو القائم فالمترجمين من اللاتين أو غيرهم دليل واضح على انتشار اللغة البونية خارج قرطاجة. أما إذا كان الاحتمال الثانى هو القائم فهو دليل آخر على انتشار اللغة البونية لدى قادة روما، وهذا أيضا معناه أن روما كانت تقدر أهمية معرفة لغة قرطاجة.

مظاهر الثقافة القرطاجية:

لعل أهم مظهر من مظاهر الثقافة الفينيقية كان الأدب القرطاجى وهو أحد أهم مظاهر الحضارة البونية خلال ألف سنة من الازدهار مستندا على آلاف النقوش التى وجدها العلماء فى كثير من مناطق العالم الفينيقى وفى قرطاجة والأقاليم التابعة لها، وترجع أهمية هذه النقوش إلى أنها الدليل المباشر على استمرار الثقافة والحضارة القرطاجية، وخصوصا أنها مكتوبة باللغة البونية لغة الدولة والثقافة محل الدراسة[4].

وقد انتقلت المؤثرات الثقافية إلى الأقاليم المجاورة لقرطاجة، فالثقافة النوميدية قد

---

(1) محمد بيومى مهران، مرجع سابق، ص287.

(2)polyb.xiv.iii.

(3) تشير مصادر العملة إلى أن بعض أسماء ملوك نوميديا كنت مكتوبة بالفينيقية.راجع

Mazard.J.,*Corpvs Nvmmorvm Nvmidiae Mavretaniaeqve*,Paris 1958,pp194-197.

(4)MaurcieSznycer., *La Litterature Punique,Carthage,Archeologie vivante*, Paris 1969.p.144.

داخلها قدر كبير من الثقافة الفينيقية، فقد كان النوميديون إلى وقت طويل وهذا أمر طبيعى تحت التأثير الفينيقى وذلك أثناء عملهم وخدمتهم فى الجيش القرطاجى، وخلال علاقات الزواج بين الحكام النوميديين والأسر القرطاجية حتى أن ماسينسا نفسه كان يتعلم فى قرطاجة وظل التأثير الفينيقى عليهم قويا حتى بعد عام 201ق.م وهى السنة التى انتهت فيها الحرب البونية الثانية (و التى ساهم ماسينسا فيها بجهد كبير حتى هزمت قرطاجة)، وحتى بعد هذا كان يتسرب النفوذ الفينيقى إلى مملكة نوميديا من المدن الفينيقية الساخلية مثل: لبكس ماجنا Lepcis Magnaوهيبو ريجيوسHippo Regius وحتى المدن الداخلية والتى كانت تحت سيطرة القرطاجيين مثل: ثجا Thuggaوسيكا Siccaوتسرب نفوذ الفينيقيين إلى المناطق النوميدية أيضا. وعلى سبيل المثال كانت مدن كيرتا CirtaوقفصةCapsaيصاغ دستورها على الطريقة الفينيقية؛ ومما هو جدير بالإشارة أن بعض أسماء العائلة الملكية النوميدية يوجد بها أسماء مثل: ادهربعلAdherbal ومستنبعل Mastanabalوهى أسماء فينيقية أو شبه فينيقية تشير إلى عبادة الإله الفينيقى (بعلBaal)كما أن نوميديا كانت تستعمل اللغة الفينيقية فى كثير من الأمور الرسمية، وكذلك فى النقوش الأثرية وتسك بها العملة.[1]

وقد يكون من المؤكد أن كثيرا من النصوص البونية ترجمت إلى اللغة اليونانية واللاتينية، وخصوصا ما سجله هانون Periplus of Hannonعن الرحلة البحرية فى المحيط الأطلسى وكشف عن غرب إفريقيا، ورحلة هيملكون الذى كلفته قرطاجة فى حدود عام 450 ق.م أن يقود حملة لكشف سواحل غرب أوربا، والتى ورد ذكرها فى كتاب بلنيوس.Plinius.vii.197 الذى يرجع تاريخه إلى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى ،وقد تمكن هيملكون من التعرف على مجموعة من الجزر منها بريتانى وغيرها وكانت هذه الجزر من أهم مناطق تجارة القصدير، ورغم أن هذه الرحلة كانت على نفس المستوى من الأهمية مع رحلة هانون إلا أنها لم تشتهر مثلها بسبب عدم تسجيلها،لكن المعلومات عنها وردت فى كتب اليونان والرومان [2]، وقسم هانيبعل وبضعة أجزاء من

(1)T.D.Fage.op.cit.,p.148.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء بإشراف إبراهيم بيومى مدكور وآخرين ج2، القاهرة 1978، ص151؛

Herm.G.,*The Phoenicians,Translated by Caroline Hillier*,London 1975,p.206.

أطروحة ماجون عن الزراعة،كل هذا بدون شك يدخل ضمن الأدب القرطاجى ولكنه مفقود،ومع ذلك فنصوص راس الشمرا واوجاريت تخبرنا عن إمكانية اكتشاف أشياء جديدة ممكنة، وربما يتم الكشف عن الوثائق الفينيقية فى قرطاجة من نقوش ونصوص وكتب ضمن المكتشفات المتوقعة.[1]

وقد كانت رحلة هانون من الأعمال المهمة ولها قيمتها إذ تم التعرف من خلالها على بعض الأقاليم. وما يهمنا هو كتابة تفاصيل هذه الرحلة على لوحة بعد عودته وضعها فى معبد كرونوس Chronos(Baal Hammon)بقرطاجة [2] وهذا العمل الأدبى الذى حظى باهتمام واحترام عدد كبير من المثقفين الإغريق والرومان دفع مجلس الشيوخ الرومانى إلى إصدار أوامره بترجمة هذه الأعمال إلى اللغة اللاتينية.[3] وتشير أغلب الدراسات إلى أن نص الرحلة احتوى على كثير من الحقائق تتفق مع المعلومات الحديثة ولذلك لا يمكن أن تكون من نسج الخيال، ويؤكد ذلك أن النص اليونانى الذى ترجم إلى عدد من اللغات الحديثة به الكثير من المعلومات الدقيقة عن المواضع والأشكال والشواطئ والحياة البشرية فى الأماكن التى وصلوا إليها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا العمل يعود الفضل فيه إلى الجهود التى بذلتها قرطاجة باعتبارها واحدة من أهم المستعمرات الفينيقية، والإشارة إلى نجاح هانون هو نجاح

---

(1) تم العثور فى قرطاجة على نص عبارة عن إهداء إلى الإلهة تانيت ينسب إلى العصر البونى:[إلى السيدة تانيت Tanitبنية بعلpne Baalوالى المولى بعل حامون:هذا ما أهداه بود-ملقارت بن عبد ملقارت ابن هيملكت Hamilkatلأن الآلهة استجابو لدعائه،فليباركوه]

ومن العصر البونى الجديد النقش الآتى وقد وجد فى معبد مكتار القائم بجوار ثوجا Thuggaفى شرق نوميديا:[بنى المعبد اثر مسكار

Athar-Misker،بناه افطانIftanبن افشارIfsharوبناه معه بارك Bark بن سليدى Selidi، ومتان بعل بارك، ومتان بعل بن بعل ياتون

.....وكان الرؤساء السفيت القائمون بالعمل يومئذٍ هم:اومزجوار umzguar بن تتاى، ومندسان MandsanبنشبطانShabtan،

ومسيجران ,Mصgranبن قفسىQafsi، وذلك لان الالهة استجابت لدعائهم]كونتنو.ج.مرجع سابق، ص 372..Maurice Sznycer, op.cit.p145].

(2) كونتنو.ج.،مرجع سابق ص 313؛ Maurice Sznycer,op.cit.p.146.

(3) جورج سارتون،مرجع سابق، ج2،ص 150.

لقرطاجة وقد كانت أعمال هانون وماجون وهمبسال وهاميلكار وغيرهم فى نظر الرومان من أهم الأعمال القيمة فى التاريخ والجغرافيا والزراعة، واعتبرهم الإغريق والرومان من أعظم الكتّاب الذين كتبوا فى هذه الموضوعات.(1)

ويخبرنا لفيوس أن هانيبعل قضى صيف عام 218 ق.م تقريبا بالقرب من معبد لاكونيا Juno Laconia وسجل فى نص طويل الأعمال البطولية مع الشخصيات العسكرية، هذا النص فى معبد هيرا تم دراسته بعناية من جانب المؤرخ بوليبيوس واحتوى بشكل خاص على حسابات القوات المتبادلة بين إفريقيا وأسبانيا والتى كانت سابقا مع هسدروبعل Hasdrubalعند بداية الحرب عام 219 ق.م.(2)

ومن بين النصوص المسجلة فى الأدب القرطاجى ما عرف عن هدية قدمت للملك ماسينسا ملك نوميديا من ملك مالطا Malta وهى عبارة عن نابى فيل أخذا من احد المعابد، وابتهج الملك ماسينسا أولا بالهدية ولكنه رفضها فيما بعد وأمر بإعادتها فى سفينة خماسية عندما علم بأنها من المعبد وهذا مسجل فى الأدب القرطاجى(3) وتؤكد الدراسات على أنه كان لمالطا سيادة مستقلة عن قرطاجة بدليل العلاقة التى تربطها بالملك ماسينسا إلا أن الثقافة القرطاجية كانت سائدة فيها وأن بعض السكان الذين لا يتحدثون اليونانية ولا اللاتينية كانوا يتحدثون لهجة فينيقية ربما كانت البونية، وفضلا عن ذلك كان النظام السياسى على النمط القرطاجى من حيث وجود الشوفيت ومجلس الشعب.

وقد أشار بلوتارخوس إلى كتابة دينية ظلت فى المعابد لفترة طويلة ورغم أن جسل.Gsell.S يشك فى هذا إلا أن الواقع التاريخى يشير إلى وجود الأدب الدينى فى المعابد القرطاجية. وهناك سجلات تاريخية كثيرة ورد ذكرها فى الكتاب المنسوب لأرسطو Pseudo Aristotle وإغريق وآخرين فى القرن الثالث ق.م مثل تيماكوس Timacus وأيضا فى القرن الرابع الميلادى بواسطة سرفيوس هونوراتوس Servius Honoratus؛ كل هذا يقودنا إلى أن قرطاجة كانت قد ضمت عددا كبيرا من المؤرخين الذين سجلوا

(1) Maurice Sznycer,op.cit.p.141.

(2) livy.xxi.lxii.6-11.; Maurice Sznycer.,op.cit.pp.142-143.

(3) Harden.D.,op.cit.pp.70,105.

تاريخ المدينة وكانوا على صلة بمن هم مثلهم من الأدباء والمؤرخين الذين سجلوا هم أيضا تاريخ قرطاجة، والمعروف أن القرطاجيين كانوا يسجلون أعمالهم البارزة ويضعوها فى المعابد[1].

وتشير المصادر إلى أن الكتاب الرومان مثل: سولينوس Solinus وأميانوس Ammianus كانوا قد اعتمدوا فى أعمالهم على معلومات مستمدة من كتب قرطاجية. ويذكر سولينوس أن النيل ينبع من جبال موريتانيا، ويعتمد فى ذلك على كتب قرطاجية حسبما ذكر الملك يوبا Jubaملك نوميديا. أما الملك يوبا الثانى Juba II ملك موريتانيا يذكر حسب رواية أميانوس المعتمد على كتب قرطاجية أن منابع النيل كانت فى جبال موريتانيا المطلة على المحيط الاطلسى، وفيما يتعلق بهذه النقطة تحديدا يبدو أن هناك سوء فهم لما كتب عن منابع النيل، ويذكر المؤرخ سالوست أن معلوماته عن سكان شمال إفريقيا وصلته مترجمة عن كتب بونية كتبها الملك هيمسال الثانى Hiempsal II(106-60 ق.م) ملك نوميديا ومن بينها تاريخ نوميديا باللغة البونية[2] وهذا يؤكد أن اللغة والثقافة البونية كانت منتشرة فى أغلب مناطق شمال إفريقيا وأن العلماء اعتمدوا على معلومات تاريخية وجغرافية من قرطاجة.

وتذكر بعض الدراسات أن القرن الرابع قبل الميلاد شهد بعض الأعمال الأدبية ثنائية اللغة على درجة كبيرة من التقدم والتطور، وربما يكون المقصود بذلك أنها كتبت بلغتين فى وقت واحد. واحدة منهم اللغة البونية ظهرت فى كتب الإغريق أو الرومان أو البونيين، ومن بينها ما سجله فيلينوسPhilinus من مدينة اجريجنتوم Agrigentum عن أحداث الحرب البونية الأولى، وما سجله كل من سوسيلوس Sosylus وسيلينوس Silenus أصدقاء ومعلمى هانيبعل الاسبرطيين وصلتهم سجلات عن معارك هانيبعل قائد قرطاجة، وكذلك شذرات عن حلمه الشهير والذى ظهرت إشارات عنه فى كتبهم، ومن المعروف أن هانيبعل كانت له أعمال كتبت باللغتين اليونانية والبونية.[3]

ومن المعروف أن الدستور القرطاجى بلغ حدا من الشهرة لدرجة أنه ظهر فى كتابات

---

(1)Maurice Sznycer.,op.cit.p.142.

(2)T.D.Fage.,op.cit.,p184 Sallust.17.7.(tamen uti ex libris Punicis,qui regis Hiempsalis dicebantur).

(3)Maurice Sznycer.,op.cit.p.143.

الفيلسوف أرسطو وهو الذى اعتبره مثالا يحتذى به فى دراسة المؤسسات والنظم السياسية والاجتماعية التى نظمت حياة هذه المدينة وإشارة أرسطو للدستور القرطاجى ليست غريبة، فقد كان من بين الإغريق مؤرخون أرخوا باستفاضة للعلاقات اليونانية القرطاجية وللحروب البونية الأولى والثانية بما يظهر أهمية قرطاجة وتبيين فضلها، وهناك عدد كبير من القرطاجيين اتخذ من اللغة اليونانية وسيلة تفاهم وأداة طيعة وأحسنوا استعمالها فى أعمالهم التجارية الواسعة، إلى جانب أنها كانت إحدى وسائل الكتابة والتعبير لدرجة دفعت السلطات القرطاجية لتحريم استعمال اليونانية على رعاياها فى بعض الأوقات ولكن دون جدوى. فقد نشأت حالات زواج ومصاهرة بين الإغريق والقرطاجيين وأظهر الناس إعجابهم فى القرن الرابع قبل الميلاد من قوة وبلاغة وفصاحة مجموعة من القرطاجيين فى مدينة سيراكوز Syracuse بجزيرة صقلية، كما أن هانيبعل درس اليونانية وهو بعد فى أسبانيا على يد معلم من اسبرطة الذى وضع فيما بعد تاريخا مفصلا لتلميذه [1].

ويذكر القديس جيروم St.Jerome[2] طبقا لمصادره أن الشعر الغزلى كان معروفا فى قرطاجة،وكذلك الأدب الشعبى، الذى كان يتنقل بين الناس شفاهة.وهذا الأسلوب فى انتقال المعارف بدون شك يرتبط بالطبقات الاجتماعية ومستوى الثقافة التى كانت تحياها الشعوب القديمة،فالأساطير مثلا كانت أسهل انتشارا عن غيرها بين الطبقات الشعبية.

وتشير الدراسات إلى أن قرطاجة بلغت درجة عالية من الثقافة جعل لديها نوعا من الأدب التعليمى مثل ذلك الذى كان موجودا فى الشرق. وليس لدينا صورة واضحة عن الأدب نظرا لضياع المكتبة القرطاجية وإنما توجد إشارات فى المصادر اليونانية والرومانية تمد الباحثين فى هذا الموضوع ببعض المعلومات التى تفيد فى وجود الأعمال التعليمية. والدليل على ذلك أن من بين الذين تولوا ترجمة دائرة المعارف الزراعية التى وضعها

---

(1) أندريه ايمار وجانين أوبوايه، مرجع سابق، ص58.

(2) القديس جيروم (342-420 م) من سكان ايطاليا ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية أحد المقربين إلى البابا خلال هذه الفترة أعجب بما كتبه شيشيرون وفرجيل زار فلسطين وأسس دير قرب بيت لحم وهو أحد آباء الكنيسة وعلماء الدين المسيحى المثقفين.راجع Maurice Sznycer.opcit.p144.ff .

ماجون القرطاجى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى. وقد يفيد هذا النموذج كشاهد على انتشار اللغة البونية، أما الوسيلة التى تعلم بواسطتها عضو مجلس الشيوخ اللغة البونية فهى غير معروفة على وجه الدقة وقد يكون تعلمها من أحد السفراء أو المتعلمين أو التجار وغيرهم.(1)

وقد تكون بعض الأعمال الفلسفية فى قرطاجة غير ظاهرة، ومن بين الشخصيات المهتمة بالنواحى الفكرية والفلسفية هسدروبعل وهو من مواليد قرطاجة فى القرن الثانى قبل الميلاد، ومما هو جدير بالذكر أنه ذهب إلى أثينا للدراسة والبحث وهو فى الأربعين من عمره، وأصبح من مشاهير الفلسفة واتخذ اسم كليتوماخوس Clitomachus واستمع إلى كارنيدس Carneades أحد فلاسفة أثينا فى هذا الوقت والمولود فى مدينة قورينى اليونانية بشمال إفريقيا ذهب إلى أثينا لدراسة الفلسفة بالإضافة إلى دراساته فى الأكاديمية درس المنطق مع دياجونيس Diagenesوهو أحد أعضاء المدرسة الرواقية، أصبح رئيسا للأكاديمية فى وقت ما قبل عام 155ق.م. عرف مذهبه الفلسفى من خلال تلميذه كليتوماخوس الذى رأس الأكاديمية بعده وهو الذى رأى فى هسدروبعل حماسة كبيرة وجعل منه أحد تلاميذه المقربين، وائتمنه على رسائله العلمية وقد أنتج هسدروبعل أكثر من سبعين كتابا وأخذ مكان أستاذه كارنيدس وذيل أفضل نظرياته فى كتبه، وساهم بأفكاره فى ثلاث مدارس فكرية وكان يعرف بالاكاديمى المتجول، ومن خلال هسدروبعل عرفت أشياء عن فلسفة كارنيدس الذى نجح فى عام 129 ق.م على تسجيل ملاحظات على فلسفة دياجونيس ورسائله، ويبدو أن هسدروبعل أضاف إلى احتمالات اركسيلاس Arcesilasوصنع لنفسه مكانا متقدما فى الفكر والفلسفة. بل إنه أصبح بعد أستاذه رئيس مدرسة ظهرت بعض أفكاره فى كتابات شيشرون فيما بعد.(2)

وفى مجال انتقال الثقافة القرطاجية إلى مناطق كثيرة، تذكر الدراسات التاريخية أن الليبيين المنخرطين فى جيش قرطاجة كانوا يحملون معهم عند الرجوع إلى أوطانهم شيئا من المدنية القرطاجية التى عاشوا فيها، أما الذين يعملون منهم فى الوكالات التجارية

---

(1) اندرية ايهار وجانين اوبواية، مرجع سابق، ص 58.

(2) Gsell.S.,*Historie Ancienne de L'Afrique du Nord*,Paris 1972,Tome III,p405.

عبد الرحمن بدوى، خريف الفكر اليونانى ط3 القاهرة 1959، ص 78.

البونية ويعيشون فى قرطاجة أو فى مملكة نوميديا هم وأولادهم وأحفادهم و الذين أحبوا القرطاجيين وكانوا يتحمسون لهم فإنهم احتفظوا باللغة والثقافة البونية [1]. ولم يحمل التجار القرطاجيون معهم البضاعة فقط بل حملوا كذلك جملة من العادات والصناعات والأفكار والمعتقدات استساغها الناس شيئا فشيئا، وكان لذلك أبعد الأثر فى عاداتهم[2] ليس فقط الإفريقيين وحدهم هم الذين كانوا يذهبون إلى قرطاجة وتأثروا بثقافتها إنما كان الإغريق والإيطاليين والاتروسكان والمصريين الذين ذهبوا إلى قرطاجة لعرض بضائعهم أو مصنوعاتهم. وهؤلاء كانوا قد تأثروا بالثقافة البونية مثلما تأثر المصريون والسوريون وبدرجة كبيرة بالحضارة الإغريقية من خلال العلاقات التجارية.[3]

وقد كان تأثير المدنية القرطاجية أقوى بطبيعة الحال فى نوميديا. وتشير بعض الدراسات إلى أن الثقافة الرومانية كانت تجد صعوبة فى الانتشار فى إفريقيا أو نوميديا [4]. و يرجع السبب فى ذلك إلى أن الثقافة القرطاجية كانت قد بهرت الأمراء النوميديين الذين أقام عدد كبير منهم فى قرطاجة وتزوجوا بنات طبقتها النبيلة وسموا أبناءهم بأسماء قرطاجية ومنحوا مدنهم دساتير منسوخة عن دساتير المستعمرات الساحلية وعبدوا الآلهة السامية وشجعوا رعاياهم على العمل بأساليب ماجو الزراعية[5].

واستعان الملوك وكبار القوم بفنيين من قرطاجة، وقد شيد أحد هؤلاء حوالى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ضريحا فى مدينه دقة Dougga حيث توجد فى نفس الوقت نماذج شرقية وإغريقية عتيقة هى من خصائص الفن البونى. يحتوى هذا الضريح المبنى بحجارة ذات زخارف جميلة عليها كتابات باللغة الليبية والبونية. وتعد هذه الكتابات خير دليل على أن الأرستقراطية النوميدية كانت تستعمل اللغة البونية فى النقوش الحجرية وأحيانا

---

(1) Harden.D.,op.cit.p73.

(2) شارل أندرى جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة، تونس 1985، ص 125.

(3) Harden.D.,op.cit.,p.73.

(4) Ibid.p.68.

(5) شارل أندرى جوليان، مرجع سابق، ص125.؛ T.D.Fage,op.cit.pp175-176.

كانت تنافس بها اللغة الليبية. وتذكر هذه الكتابات أسماء لبناة وعلى رأسهم عبريش الذى كان قرطاجيا بدون شك وأسماء أعوانهم وأسماء النجارين والحدادين.[1]

ولعل من الأهمية هنا الإشارة إلى أن ولايتى نوميديا وموريتانيا قد اعترفتا بالسيادة الرومانية وإن تركت مقاليد الحكم فيها لأبناء هاتين المملكتين تحت السيادة الرومانية، وأن التأثير الثقافى القرطاجى إنما قد استمر فى هاتين الدولتين بل ربما قد ازداد عما كان عليه الحال من قبل حيث انتعشت المستوطنات الساحلية القديمة، والتى كان قد هرب إليها العديد من اللاجئين فى سنوات الصراع الرومانى القرطاجتى الأخير، كما انتشرت اللغة الفينيقية فى صورتها الأخيرة والتى عرفت بالبونية الجديدة على نطاق واسع عن ذى قبل.[2]

أما فى موريتانيا فهناك من يذهب إلى أن الملك يوبا الثانى 25 ق.م ــ15 م إنما كان مواطنا رومانيا وأنه قد ارتبط بالزواج من الأميرة كليوباترا Selene ابنة الملكة كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة، ويعد عصره من الناحية الحضارية أقرب إلى الصفة الدولية، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات.. كانت القرطاجية واحدة منهم، فضلا عن الرومانية واليونانية والمصرية، وقد دعم هذا الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلف هذه الثقافات فى ذلك العصر، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والأدب حتى نسب إليه تأليف عدد من الكتب بالإغريقية وإن لم يوجد شيء منها الآن.[3]

ويشير ورمنجتون Warmington إلى أن مظاهر الثقافة القرطاجية فى شمال إفريقيا استمرت حتى بعد سقوط المدينة بعدة قرون، و يعتمد فى ذلك على ما ورد عند القديس أوجستين (القرن الخامس الميلادي) الذى لاحظ استخدام اللغة البونية وأشار إلى صلتها بالعبرية، كما سجل أيضا إشارات عن قوة الدين البونى، وأن معرفة الناس به سهّل إلى حد كبير تطور المسيحية فى إفريقيا وانتشارها فى أماكن كثيرة، وقد لاحظ أيضا أن أسماء عدد كبير من المسيحيين كانت مركبة وفقا للنموذج القرطاجى القديم فى شكل لاتينى

(1) شارل أندرى جوليان، مرجع سابق، ص 126.

(2) محمد بيومى مهران، مرجع سابق، ص 289.

(3) نفس المرجع، ص 294.

مثل Deusdedit=(Baalyaton)و Muttumbaal)= Dieudonneفالاسم الأول يبدأ باسم بعل فيصير(بعل ياتون)، والاسم الثانى ينتهى باسم بعل فيصير(موتوم بعل). وهنا نلاحظ أن الثقافة القرطاجية ظلت مستمرة فى بث مؤثراتها فى شمال إفريقيا فترة طويلة من الوقت، بدليل وجود اسم الإله الفينيقي(بعل) فى تركيب بعض الأسماء أللاتينية لبعض سكان شمال إفريقيا فى العصر المسيحى.[1]

مكتبة قرطاجة:

كانت المكتبة موجودة بكل تأكيد منذ عدة قرون، ولا نغالى إذا قلنا إنها كانت موجودة منذ تأسيس الدولة، ومن المعروف أن القادمين من الشرق من مدينة صور وغيرها إلى غرب البحر المتوسط لتأسيس وكالات تجارية أو مستعمرات كانوا يحملون معهم كتبهم المقدسة وأشعارهم الملحمية وأساطيرهم، وتوصف المكتبات القرطاجية بأنها كانت واسعة، وهذا معناه أن المكتبة أعدت لتستوعب اكبر عدد من القراء والمثقفين، ووصول الكتب من الشرق مع التجار يعد دليلا على تعدد موارد الثقافة داخل المكتبة، فضلا عن اتساع نطاق الثقافة بعد أن ظهرت بعض الأعمال باليونانية واللاتينية داخل المكتبة، هذا بالإضافة إلى وجود كتب أدبية ثنائية اللغة.

وتذكر بعض الدراسات[2] أن المكتبات القرطاجية كانت على طراز مكتبة الإسكندرية بيد أن هناك دراسات أخرى تشير إلى أن القرطاجيين قد أقاموا الكثير من المكتبات على طراز مكتبة الملك الاشورى أشوربانيبال Assurbanibal فى القرن السابع قبل الميلاد [3]، ورغم التباعد الزمنى بين تاريخ الإسكندرية وقرطاجة إلا أنه يشير إلى أن مكتبة قرطاجة قد حظيت بشهرة واسعة رغم غياب شكل الطراز الذى كانت عليه قبل هدم الرومان للمدينة بالكامل فى عام 146 ق.م.

ويخبرنا المؤرخ بلنيوس أن مجلس الشيوخ الرومانى قدم المكتبات العامة التى نجت من التدمير كهدية إلى أمراء المنطقة [4]، منهم مكيبسا Micipsaملك نوميديا الذى أصبحت

(1)Warmington.B.H.,op.cit.,p.308.

(2)Maurice Sznycer.op.cit.,p.142.

(3)Ibid.p.142.

(4)Plinius.xviii.22.

مكتبته بعد قرار مجلس الشيوخ مركزا للمكتبة الثقافية الفينيقية؛ [1] وهذه المكتبات كانت تحتوى على كثير من الكتب التى كانت على درجة عالية من القيمة العلمية مثل رسالة ماجون عن الزراعة وهانون عن الملاحة والكشف الجغرافي[2] . ونخلص من هذا إلى أن المكتبات التى أهديت إلى أمراء نوميديا كانت من القيمة العددية والعلمية ما يصلح أنها تقدم على سبيل الهدية جزاء ما قدموه من معونة ومساعدة فى إسقاط المدينة الرئيسة فى شمال إفريقيا، ورغم أن أغلب المصادر تتفق حول هذا الإجراء إلا أنها لم تشر إلى أن هذه المكتبات ظلت ذات طابع خاص، والأقرب إلى الواقع أن هذه المكتبات ذابت فى مكتبات البلدان التى أهديت إليها بقصد أو بدون قصد.

ومن بين الأمور التى تستحق الذكر فى هذا الصدد أن هؤلاء الأمراء الذين وصلتهم كتب القرطاجيين لم يعنوا كثيرا بها رغم أنهم كانوا يستطيعون قراءة اللغة البونية، أما كنوز قرطاجة الغنية فقد حملت إلى روما أو أعطيت للمستحقين من حلفائها الظافرين، أما فلول القرطاجيين الذين ظلوا على قيد الحياة فقد تشتتوا على طول الساحل الإفريقى دون أن يعمدوا إلى تخطيط مدينة أخرى وعلى مر السنين ضاعت تقاليدهم القديمة، وقد استوثق المؤرخون بجانب هذا من أن مادونه كاتما السر الإغريقيان اللذان كانا فى معية هانيبعل قد دمر أو فقد ماعدا بعض شذرات اقتبسها كتاب متأخرون.[3]

ولا ريب أن هذه المكتبات كما سبقت الإشارة كانت تحتوى على مؤلفات فى التاريخ والعلوم الحديثة وسير الفلاسفة والملوك، ووصلت إلى قدر كبير من القيمة العلمية ما دفع الرومان أن ينقلوا إلى اللاتينية بعض البحوث وأفادوا منها زمنا طويلا[4]. وتشير بعض الدراسات أن هانيبعل نفسه يذكر أنه كتب عدة أعمال باليونانية والبونية، أيضا خيرون القرطاجى Charon of Carthage كتب سلسلة من الأعمال عن مشاهير الرجال والنساء فى قرطاجة وخارجها مثلما كتب عن طغاة أوروبا وآسيا، ومن المؤكد أن هذه الأعمال

(1) T.D. Fage.,op.cit.,p184,gsell.s.op.cit.,iii.p.403.

(2) Warmington.B.H.,*Carthaginian general history of Africa,II.p.462.* ;Warmington. B.H.,*Histoire et civilization.op.cit.p.306.*

(3) هارولد لام، مرجع سابق، ص ص 4، 5.

(4) نفس المرجع، ص 320.

كانت من بين الكتب التى احتوتها مكتبة قرطاجة أو المدن التابعة لها بدليل الإشارة إليها فى كثير من الدراسات المتعلقة بالمكتبة القرطاجية.[1]

التعليم

توافرت فى قرطاجة الظروف والعوامل المشجعة على وجود تعليم مستقر متعدد الجوانب والأغراض، فالدولة التى نحن بصدد الحديث عنها ذات أصول وتراث سياسى وثقافى فينيقى انتقل معها هذا الموروث إلى شمال إفريقيا عند التأسيس، كذلك كان الاحتكاك بعدد كبير من الدول والشعوب التى تعيش على شواطئ البحر المتوسط من بينها الإغريق والرومان؛ وكان طبيعيا والدولة تحترف التجارة أن تتعامل مع هذه الدول بشكل مكثف أن يكون لديها أصول ثقافية عن الدول محل التعامل ليس هذا فقط وإنما كانت قرطاجة حريصة على أن يرث أبناؤها هذا المخزون الثقافى عن الدول التى سوف يتعاملون معها، وقد تم بالفعل فيما عرف بانتقال الثقافة اليونانية والرومانية إلى شمال إفريقيا؛ كذلك ما تم ترجمته من الكتب والموسوعات القرطاجية وانتقل إلى بلاد اليونان والرومان، كل هذا كان لايمكن أن يتم إلا إذا كان لقرطاجة إطار تعليمى مستقر فى جميع المجالات، وهذا ما سوف نناقشه فى الصفحات التالية.

وتشير كل المصادر التاريخية إلى حقيقة مؤكدة كانت موجودة فى قرطاجة وهى التعليم، غير أننا فى حقيقة الأمر نفتقد البرامج التى كان عليها، والسبب ذكرته أيضا المصادر وهو التدمير الذى أصاب المدينة كلها عن عمد، وقام به الرومان فى نهاية الحرب البونية الثالثة، ولم يعد أمامنا سوى البحث عن الإشارات الواردة فى المصادر عن التعليم سواء بشكل نظامى أو جهود خاصة لتربية الأبناء. ويجب الإشارة إلى حقيقة أخرى فى هذا المجال هى أن الإشارات التى ترد عن التعليم تأتى فى إطار حديث اليونان عن الثقافة القرطاجية ونقلها أو ترجمة الكتب الفينيقية إلى اليونانية، أو فى حديث الرومان عن شخصيات الصراع الرومانى القرطاجى وأهم شخصية فى تاريخ الحضارة القرطاجية والعالم القديم كانت شخصية هانيبعل، وهو الذى أحرج الرومان فترة من الوقت،

(1) Maurice Sznycer.,op.cit.p.143.

وأربكهم واقترب من أبواب روما، ولذلك فالرومان كانوا من بين الذين كتبوا عنه وهم أعداؤه، ومن خلال هذا كانت معلوماتنا عن التعليم فى قرطاجة.

التعليم العسكرى:

كانت أول بيئة يذكرها هانيبعل تتصل بمعسكر مسلح على خلاف غيره من أمثاله ولكن الذين حوله لم يكونوا فى العادة يحملون سلاحا بل كانوا يقومون بأعمال تتعلق بالحياة اليومية، ولم يجد الصبى غرابة وهو ابن الخامسة فى أن يتخاطب هؤلاء القوم النشيطون بخليط من اللغات، إذ كانوا أجراء من اثنى عشر شاطئا أو جزيرة، وقد وفقوا إلى معرفة لغة الإفريقيين الوطنية الجافة ولغة اليونان المهنية، وكان الصبى على استعداد لان يصغى لحديثهم كلما أراد أن يعرف أى شىء خفى، ولذلك كان الأجراء يتركون عملهم ليجلسوا إليه ويوضحون كل شىء لابن السيد هاميلقار، على أية حال أصبح هذا المعسكر مقر حضانة الصبى تحت إشراف أجراء والده الذين كانوا يتقاضون أجورا على خدمتهم له[1].

ومن المناظر التى ظلت عالقة بذاكرة هانيبعل هو منظر حشود من المرتزقة على جانبى الطريق بالقرب من مدخل قصر والده فى قرطاجة، وهؤلاء كانوا يحملون أسلحة مصقولة بعناية بواسطة العبيد وبعض الإيطاليين الهاربين من حكم الرومان، وفى هذا الموقف دارت المناقشات حول الصلح مع الرومان بعد الحرب البونية الأولى، كل هذا والصبى يرقب الموقف بعناية[2].

وبعد الحرب البونية الأولى اشتعلت ثورة الجند المرتزقة وحددت إقامة أفراد الأسرة من باب الخوف عليهم وفى قصر المدينة كان يقيم هانيبعل مع شقيقاته وأشقائه الصغار حيث تلقفه المربون واستطاع علماء الرياضيات الإغريق الذين يعلمون أشقائه أن يعلموه بعض المعارف خلال هذه الفترة [3]. والحقيقة أن هانيبعل طبقا لإشارة زوناراس Zonaras كان يتدرب على القتال منذ حداثة سنه، ليس وحده فقط وإنما كل إخوته فقد

(1) هارولد لام، مرجع سابق، ص 10.
(2) نفس المرجع، ص 16.
(3) نفس المرجع، ص ص 17، 20.

رباهم هاميلقار برقة على الشجاعة والجراءة وأن يكونوا مستعدين لحرب الرومان، ولهذا كان دائما يهتم بالإشراف على تدريباتهم العسكرية وبشكل خاص هانيبعل.[1]

ويشير المؤرخ لفيوس إلى أن هانيبعل قضى فترة من الوقت تحت التدريب فى قرطاجة قبل الانتقال إلى أسبانيا مع أبيه [2]. و يروى هانيبعل قائلا:"لقد سكب والدى دم الضحية المقدسة للإله وكنت واقفا قرب المذبح (مذبح الإله بعل حامون Baal Hammon) . فلما فرغ من تأدية الطقوس الدينية أمر الجميع أن يعودوا إلى الوراء قليلا ثم استدعانى إليه وسألنى فى رفق بالغ عما إذا كنت راغبا فى اصطحابه إلى رحلته، وكصبى صغير وافقت بل توسلت إليه أن يسمح لى بذلك، وعندها أخذنى من يدى وقادنى إلى المذبح ثم طلب منى أن أقسم على ألا أكون يوما صديقا للرومان وقد فعلت هذا".[3]

والتصرف الذى قام به هاميلقار برقة يمكن تصنيفه على أوجه كثيرة فهو من جانب يشير إلى مدى عمق العداوة التى يكنها القائد للرومان، ورغم أن السبب معروف وهو الهزيمة التى أصابت الدولة فى نهاية الحرب البونية الأولى إلا أنه يرغب فى أن يزرع فى قلب الطفل الرغبة فى الانتقام، إذا ما وصل إلى الحكم يوما ما وقد حدث بالفعل، ومن جانب آخر ربما أن يكون هذا التصرف شكلا من أشكال التربية العسكرية التى يرغب الأب أن تلازم الطفل منذ السنوات الأولى من عمره وهو محاربة الرومان، وقد يكون هذا القسم الذى أداه هانيبعل بمساعده والده أساسا للتربية السياسية القادمة، فهو أحد أبناء الأسرة الحاكمة ومن الوارد أن يكون أحد القادة السياسيين فى أسرة برقة، وهنا نلاحظ أن هانيبعل بعد أن أصبح قائدا بيده أمور الجيش لم يلن أبدا فى مهادنة الرومان، مع العلم أن كل تصرفاته كانت منطقية سليمة تعتمد على أوامر من مجلس الشيوخ القرطاجى بخصوص إعلان الحرب أو إبرام هدنة مؤقتة.

والقسم الذى أداه أفراد أسرة هاميلقار لدى نزوحهم إلى أسبانيا فقد أصبح ذا شأن، ذلك لأن تكرار المؤرخين له دون انقطاع أكسبه معنى لم يكن له من قبل، فنحن دائما نطالع

---

(1) zonaras.8,21.

(2) livy.xxi.2.

(3) هارولد لام،مرجع سابق، ص 23. . Brain Caven,*The Punic wars*,London 1980,p.78

أن هاميلقار جعل جميع أبنائه يقسمون على ألا يكفوا عن معاداة الرومان، وأن حياة الأبناء وخاصة هانيبعل كرست منذ ذلك العهد لتنفيذ قسم صباه.[1]

كانت عملية التعليم والتدريب فى كافة الميادين من الأمور ذات الاهتمام الكبير الذى يستحوذ على فكر جميع أفراد المجتمع القرطاجى وعلى الأخص حكومة الدولة، بل كانت فى نظر الأحزاب السياسية من المبررات القوية التى يستغلها الزعماء والمعارضون فى تقوية رؤيتهم السياسية، حدث ذلك عندما كانت أمور أسبانيا فى مقدمة الأحداث بعد رحيل كل من هاميلقار برقة وهسدروبعل وأخذت الحكومة تناقش أمر القيادة القرطاجية فى أسبانيا وطرح حزب برقة اسم هانيبعل ليتولى زمام الأمور، وهنا كان رأى الحزب المعارض بقيادة هانو أن يبقى هانيبعل فى قرطاجة للتعليم والتدريب مثل غيره من الشباب[2] . ويفهم من هذا النص أن تعليم الشباب فى سن هانيبعل من الأمور المعروفة التى يجب أن يلتزم بها مثل غيره وأن تكون القيادة العسكرية فى يد قادة أكبر عمرا من هانيبعل، وعليه فالتعليم كان للجميع فى مثل هذا السن بالنسبة للشباب، وربما كان يعادل مرحلة من مراحل التعليم المتقدمة فى وقتنا الحاضر.

ومن الأمور ذات الأهمية الكبيرة أن هانيبعل كان قد تدرب على أشياء كثيرة منذ صغره، فقد تثقف بالثقافة الهلنستية وعاش داخل أسرة فينيقية ذات نشاط واسع فى البحر المتوسط، ورغم أنه أقسم ألا يحب الرومان إلا أنه لم يحتقرهم فهو ابن هاميلقار وصهر هسدروبعل، تعلم منهم كيف يكون احترام الحضارة، و أن يحسن التعامل مع الأشخاص، ومن هسدروبعل تعلم فن الدبلوماسية، ولذلك كان يعرف كيف يفرق بين الحلفاء والأصدقاء بالنسبة لروما، كما عودته تربيته على أن يحترم واجبه الوطني، أيضا كان ينظر إلى روما على أنها عدو متشدد ضد قرطاجة، وخلال وجوده فى أسبانيا رأى بنفسه أن روما حرمتهم فرصة المزج بين نشاطهم الاقتصادى والعسكرى فى ايبيريا، وعلى هذا كانت مشاعر هانيبعل ضد روما مستندة على ما تدرب عليه وشهده بنفسه.[3]

كان القائد القرطاجى هانيبعل فى السادسة والعشرين من عمره، وفى عنفوان شبابه

---

(1) هارولد لام ،مرجع سابق، ص ص 23، 24. Gsell.S.,op.cit.p.252.

(2) livy.xxi.3.

(3) Brian Caven.,op.cit.pp.87,93.

ثابت الجنان يدير الأحداث على حسب استطاعته الطبيعية وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجيين وتمكنهم من لغتى فينيقيا واليونان وآدابها وتاريخها.. جمع إلى هذه الثقافة تدريبا عسكريا دام تسعة عشر عاما، وفى المعسكر الحربى أدب خلالها نفسه أحسن تأديب فعود جسمه شظف العيش وفعالية الصعاب وأخضع شهواته لعقله وعود لسانه السكوت كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض، كما تعود أن يكون مساويا للجميع، يهتم بحل كل مشاكل جنوده [1] ولم يكن يضارعه أحد فى الحروب أو فى سباق الخيل وكان فى مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ويصفه لفيوس [2] وهو من أعدائه بأنه كان أول من يدخل الحرب وآخر من يخرج منها. [3] لذلك كان محبوبا من الضباط والسلطات الوطنية فى قرطاجة. [4]

وكان هانيبعل يميل إلى الضحك والتفكه وهى صفة كان يشاركه فيها سكان الجنوب من أهل أسبانيا، وهم قوم غير منطوين على أنفسهم مرحون، كانت لغة التخاطب عندهم شديدة الشبه فى سرعتها باللغة القرطاجية، وقد قضى هانيبعل فترة صباه وهو مراهق فى وديان أسبانيا وعرف نساء يبهرن الأنظار تزوج بإحداهن وهى إحدى أميرات كاستيولا من قوم اولاكاد Olcades ولم يعرف التاريخ عنها سوى أن اسمها (اميلى)، ولعل ذلك الزواج كان كزواج هسدروبعل ذا صبغة سياسية، وهو فى كثير من الأمور كان يتفق تماما مع السياسة التى تمارسها أسرته فى أسبانيا [5] ذلك لأن قوم اولاكاد كانوا حماة الحدود القائمة بين جبل الفضة الذى يمتلكه الايبيريون والهضبة الوسطى التى يسكنها الكاربيتانيون البرابرة الذين لا يدينون بالولاء لأى عاهل على الإطلاق، ومع ذلك يرى عدد كبير من المؤرخين أن أسبانيا أثرت على خلق هانيبعل وشخصيته التى كانت تحب الخير وتحسن التعامل مع الآخرين وتهتم بالأرض الخصبة التى استحوذت على مشاعره.وكان شديد التواضع فنال إعجاب كل فئات الجيش [6].

استعانت قرطاجة منذ القرن الرابع بالمرتزقة فى جيشها، فقد حارب إلى جوارها ليبيون

---

(1) Dio's Roman History.xiii.22.3.

(2) livy.xxi.4.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، م 3، ج 1، القاهرة 1972، ص 102.

(4) zonaras.8.21.

(5) Gsell.S.,op.cit.viii.p.249.

(6) هارولد لام، مرجع سابق، ص 36. .livy.xxi.4.

وأسبانيون وليجور يون ومن جزر البليار والكلت والسمنيون، وفى القرن الثالث استخدمت قوات من ليبيا وأسندت إلى الأمراء والوطنيين قيادة الخيول النوميدية التى استطاعت أن تسجل لها أعظم الانتصارات[1] أما الفيلة فكان يتم تدريبها بواسطة مختصين من الهنود[2] ولم يكن تنظيم هذه الأخلاط من أقوام متباينة العرق واللسان والتقاليد واستخدامهم على الوجه الأمثل والاستفادة من خدماتهم إلى الحد الأقصى بالأمر اليسير، وهذا ما تشير إليه المصادر منها المؤرخ بوليبيوس[3] والذى يشيد عاليا بعبقرية القيادة العسكرية إذ عرفوا كيف يستفيدون من هذا العدد الكبير من الأجناس المتباينة إلى أقصى حد وكان هذا الجيش يقسم إلى وحدات وفقا لقومياتهم حيث يتولى أمرهم ضابط من جنسهم مدرب التدريب اللازم من جانب ضباط قرطاجيين، ويكلفون بأعمال حسب الأسلحة التى كانت تحت أيديهم وهكذا يتدربون على فنون الحرب حتى يجيدون أصولها[4]. هذا فيما يتعلق بالخطط العسكرية والأمر نفسه على درجة كبيرة من الأهمية عندما يكون متعلقا بتعليم هؤلاء اللغة التى سوف يتم تبليغ الأوامر بها وهى بالضرورة لغة القيادة القرطاجية التى تصل الكتائب حسب جنسياتها واللغة التى يتحدثون بها وتقع مسئولية هذه النقطة على الضباط المختصين؛ فهل كانت تتم لحظة القتال ؟أم قبلها؟ وهل العدد الكبير من المترجمين يتم إعدادهم فى وقت كاف قبل المعركة؟ ورغم غياب الدليل على الخطط التى كانت القيادة تستخدمها إلا أن الواقع يشير إلى أن قرطاجة كانت بدون شك تدرب هؤلاء فى مدارس ليست بالضرورة نظامية، وإنما كانت مدارس عسكرية ملحقة بالمعسكرات يقوم كبار القادة بتدريب الضباط على هذه الأساليب المختلفة لتوصيل الأوامر.

وكان أمر الاستعانة بالأجانب ومنهم اليونانيين فى الجيش القرطاجى منذ القرن الرابع مرتبطا بالظروف التى تمر بها الدولة، ففى القرن الثالث قبل الميلاد وخلال الحرب البونية الأولى تعرضت إدارة الجيش القرطاجى لهزة عنيفة كادت أن تؤدى لخسارة كبيرة مما

---

(1) polyb.xv.11.1-2.

(2) شارل أندرى جوليان، مرجع سابق، ص 116.

(3) polyb.xv.xi.;xv.xii.

(4) أندريه ايمار وجانين او بوايه، مرجع سابق، ص 44.

دفعهم إلى الاستعانة بشخصية يونانية اسبرطية خبيرة بالشئون الحربية وهى شخصية اكسانثيبوسXanthippus فقد أبدى هذا القائد اليونانى استعداده لتدريب القرطاجيين وتعديل خططهم الحربية بدرجة متفوقة تمكنهم من الانتصار فى معاركهم القادمة مع الرومان[1]. وهذا الموقف يشير إلى مرونة النظام القرطاجى فى تقبل أن يقوم بتدريب الجيش خبراء أجانب من اليونانيين أو غيرهم طالما يأتون بنتائج فى صالح الدولة، والتدريب هو جزء من التعليم وله أهميته خصوصا إذا أتى بنتائج مرضية، ومن جانب آخر لم يتردد اليونانيون فى الانخراط فى صفوف الجنود المرتزقة فى الجيش القرطاجى، ولكن كان لهذه القوة خطورتها فى كافة الجوانب التنظيمية والمسائل المرتبطة بالقوميات فضلا عن احتمالية القيام بتذمرات داخلية بسبب تأخر الحصول على الرواتب.

تأثر هانيبعل بتربيته الأولى إلى حد كبير، ذلك الشاب الذى رافق أسرة بارقة إلى أسبانيا منذ صغر سنه وترك زوجته وابنه وبعث بهم من أسبانيا إلى قرطاجة عندما آلت إليه أمور الحرب فى إيطاليا، فهو يعرف تماما مقدار الأسرة والأبناء لدى الضباط والجنود والمحاربين من الوطنيين وغيرهم، ولذلك كان يحمس الجيش دائما ويأمر ضباطه أن ينبهوا الجنود على ألا ينسوا أولادهم وزوجاتهم وألا يضيعوا ثمار سنوات طويلة من الصراع ضد روما، حدث هذا عند الاستعداد لمواجهة الجيش الرومانى فى إفريقيا، وهنا نلاحظ أن مرافقة هانيبعل لوالده وصهره هسدروبعل علمه الكثير من أصول التعامل مع الجنود ولمس الجانب النفسى عندهم بتذكيرهم بالأسرة والأبناء. وهنا تكون مهارة القائد والاستفادة من تعليمه وتربيته العسكرية.[2]

وكثيرا ما تتردد جملة وأرسل القائد القرطاجى جواسيسه أو أعوانه إلى معسكرات العدو، وكانوا يعتمدون على هذه الطريقة دائما سواء فى إيطاليا أو إفريقيا، وواضح أنها سلاح مهم من أسلحة القتال؛ ويعد هذا دليلا على أن هناك من يقوم على تدريب هذه القوة من أفراد الجيش القرطاجى على وسائل كثيرة منها التخفى والتعامل بحذر ومعرفة لغة القوم الذين سوف يتجسسون عليهم من قوات اليونان أو الرومان، إذن المسألة

(1) رشيد الناضورى، المغرب الكبير، ج 1، بيروت 1981، ص 250.

(2)polyb.xv.ii.5,6.

ليست تكليف أى شخص إنما هى دراسة وتدريب يتم تحت إشراف قيادة الجيش القرطاجى.[1]

وتشير المصادر إلى أن ماسينسا كان داهية فى قيادة العمليات الحربية سواء فى التخطيط أو التنفيذ[2]. ويعنى هذا أن العمليات العسكرية كانت ذات جوانب متخصصة،كما تشير المصادر إلى أن ماسينسا كان قد تلقى تعليمه فى قرطاجة وحارب إلى جانبها فترة من الوقت، وهذا يبدد إلى حد ما الغموض الذى يحجب المعلومات عن الشكل التعليمى فى قرطاجة، ويعطينا الدليل على أن قرطاجة كان لديها من المعلمين المختصين فى مجال التدريب والتعليم العسكرى ،ما يجعل أحد الأمراء النوميديين أن يتفوق فى هذا المجال بشهادة الرومان أنفسهم واستخدموه فى إسقاط قرطاجة.

كان يعاون قائد الجيش أركان حرب من القرطاجيين المتعلمين يدعمه المشاة من الإفريقيين المدربين، ومن بين الأشياء التى كان يحتفظ بها القائد دائما كانت الخريطة التى يوضح عليها مساعدوه من الكتبة الإغريق علامات الشواطئ والثغور وسلاسل الجبال[3]. ورغم أن هانيبعل وقت أن كان قائدا للجيش قد تفوق على الكثيرين وتسبب فى شهرة الكثيرين مثل: فابيوس وسقبيو وكاتو إلا أنه لم يترك قواعد عامة للتدريب أو توجيهات للاسترشاد بها واتباعها[4]. وهنا نعود مرة أخرى إلى ما سبق أن أشرنا إليه (وهو معروف للجميع) وهو أن مكتبة قرطاجة قد دمرها الرومان فى نهاية الحرب البونية الثالثة وقد يكون هانيبعل قد ترك مذكراته وملاحظاته الخاصة بالتدريب العسكرى لكن الرومان إما أن يكونوا قد تخلصوا منها أو أحرقت مع المكتبة، ويعزز هذا الاعتقاد أن كل المؤرخين أشاروا إلى أن هانيبعل كتب مذكراته بالفينيقية واليونانية.

والمعروف أن قرطاجة استخدمت جميع أنواع الأسلحة مثل السفن الحربية من كل الأنواع والسهام والنبال والخيول والفيلة، وهذه الأسلحة تحتاج إلى التدريب الكافى والمستمر من جانب قادة الجيش والضباط؛ ومن الضرورى أن الأبناء كانوا يتلقون

---

(1)polyb.xv.v.

(2)Dio's Roman History.xvii;zonaras.9.11.

(3) هارولد لام، مرجع سابق، ص ص 37، 55.

(4) نفس المرجع، ص 3. H.L.Havell B.A.*Ancient Rome*.London 2003.pp.239,262,311.

التدريب على إتقان صناعة الأسلحة كل مجموعة كانت تتخصص فى إنتاج نوع محدد، والدليل على ذلك أن الحكومة كانت تطلب كميات محددة من الأسلحة من الصناع لإرسالها إلى الجنود فى ميادين القتال وتجد الاستجابة الفورية من المسئول عن هذه الصناعة. أما فيما يختص بالتدريب على السلاح نفسه فهذا من الأمور التى لابد أن الضباط كانوا يعلمونها، لأنها ضرورية حيث الخبرة التى يكتسبها الجندى من خلال التدريب على السلاح حتى يألف التعامل مع السلاح وقت الحرب.

التعليم الزراعى:

قامت الزراعة عند قرطاجة على أسس ومناهج علمية مدروسة ومتطورة، إذ كان لقرطاجة مهندسوها وخبراؤها الزراعيون الذين عرفوا أن يفيدوا إلى حد بعيد من كتب الزراعة والفلاحة التى وضعها من سبقهم من علماء اليونان، ولعل أشهر هؤلاء المهندسين وأخلدهم ذكرا العالمان هاميلقار وماجون اللذان ألفا كتابين فى الزراعة وكان لهما فى عصرهما شهرة عظيمة. وإن كانت شهرة ماجون أكبر، حيث وضع موسوعة زراعية من 28 كتابا بلغ من ذيوع شهرتها ما حمل مجلس الشيوخ الرومانى على اتخاذ قرار بنقلها إلى اللغة اللاتينية، كما تم نقلها إلى اليونانية وتولوها بالشرح والتعليق والتبسيط، وبقيت هذه الموسوعة واسعة الشهرة طوال العصور القديمة إذ كثيرا ما رجع إليها علماء الزراعة من الرومان واغترف منها مهندسوها وعولوا عليها فى تقنياتهم وتحقيقاتهم أمثال: كاتو Cato وبلينيوس[1] ويبدو أن ما ورد فى هذه الموسوعة من معلومات عن الزراعة وتربية الحيوان كان يفوق إلى درجة كبيرة المعلومات التى يعرفها اليونان والرومان بدليل الاهتمام بها ونقلها إلى لغتهم. وهناك أمر آخر مرتبط بكتابة الموسوعة ذاتها ربما كان المقصود به تسجيل المعلومات وحفظها لتكون مرجعا للمزارعين وأصحاب الأراضى الزراعية فى قرطاجة يرجعون إليها وقت الحاجة، وقد تكون واحدة من الكتب التى كانت تدرس للشباب من المهتمين بأمر الزراعة، وعلى كل الأحوال يمكن القول إن موسوعة ماجون فى الزراعة كانت على درجة من الأهمية بدليل نقلها إلى اللغات الأجنبية.

---

(1) اندريه ايمار وجانين أوبوايه، مرجع سابق، ص 56؛ كونتنو.ج، مرجع سابق، ص 305.؛
Maurice Sznycer.,op.cit.pp.147 -148.

وكان أغلب سكان قرطاجة يمتلكون مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى يعمل فيها العبيد وأسرى الحروب، وخصوصا خلال الفترة التى خاضت فيها قرطاجة حروبا كثيرة فى حوض البحر المتوسط، وهذه الأراضى كانت تنتج كثير من المحاصيل على حسب وصف المؤرخين من الزيوت والحبوب والنبيذ وغيرها،[1] وقد تكون هذه إشارة إلى تطبيق الأساليب الزراعية الجيدة التى كانت تعرفها قرطاجة، أو التى كانت تدرس فى المدارس، أو ربما منقولة من الموسوعة الزراعية التى وضعها ماجون، والبيانات التى سجلها عدد كبير من الباحثين تشير إلى تزايد فى نسبة إنتاج الاراضى الزراعية فى قرطاجة [2] وهذا ما دفع عدد كبير من ملاك الأراضى إلى المحافظة على أراضيهم.

وقد ذكر فاروVarro فى رسالته عن الزراعة ثبتا حافلا بأسماء المؤلفين الإغريق زاد عددهم عن الخمسين، ختمه بقوله: إن كل هؤلاء يفوقهم شهرة ماجون القرطاجى الذى جمع فى ثمانية وعشرين كتابا كتبت باللغة الفينيقية كل الموضوعات التى عالجوها مستقلين؛ وقد أطلق كولوميلاColumella على ماجون أبو الزراعة، وليس غريبا أن تفقد النسخة الفينيقية الأصلية، ولكن العجيب حقا ألا توجد أية بقايا من الترجمة اللاتينية. أما القليل الذى نعرفه عن أعمال ماجون إنما هى ترجمة ثانية باليونانية يرجع تاريخها إلى عام 88ق.م ترجمها كاسيوس ديونيسيوس، ولا نعرف هل نقلها كاسيوس عن اللاتينية التى يرجع تاريخها إلى ما بعد 146ق.م أو نقلها عن الفينيقية وليس الفرض الثانى مستحيلا، فمن المحتمل أن يكون كاسيوس قد عرف الفينيقية أو لعله كان متصلا بطلاب فينيقيين ساعدوه على ذلك.على كل حال فإن كتب ماجون هى نصوص مكتوبة بالفينيقية ترجمت إلى اليونانية واللاتينية.[3] .

ولابد أن القرطاجيين بدأوا بعض المشروعات الرامية إلى التحكم فى مياه الأمطار وتجميعها واستغلالها، وقد استكمل الرومان تلك المشروعات فى مرحلة لاحقة ودليلنا على ذلك ما ذكره استرا بون عن وجود سد فينيقى على مصب وادى كعام [4]. والحقيقة

(1) Maria.E.A.,*The Phoenicians and the West*.Cambridge.2001.p229.

(2) Ibid.pp.229-230.

(3) جورج سارتون، مرجع سابق، ج 5، ص ص 300 ــ 301.

(4) عبد اللطيف محمود البرغوثى، التاريخ الليبى القديم بيروت 1971، ص 310.

أن القرطاجيين رغم أنهم تجار من الطراز الأول إلا أن اهتمامهم بالزراعة دفعهم إلى تعلم الأساليب الزراعية ومعرفة مواقيت الزراعة والحصاد والري، وهذا ما دوّنه ماجون فى كتابه، فقد قدم نصائحه لمن يشتغل بالزراعة خاصة فيما يتعلق بغرس الأشجار ونظام سقيها ثم الأماكن الصالحة لزراعة كل نوع منها، كما شرح ماجون الطرق الكفيلة بتربية الحيوانات [1] وقد يكون المضمون العلمى لكتاب ماجون ومعرفة القرطاجيين به هو أشبه بدروس تعليمية فى مدارس متخصصة فى الزراعة قائمة على أسس علمية بدليل اهتمام اليونان والرومان بهذه الموسوعة الزراعية وأوامر مجلس الشيوخ بترجمة الكتاب فى روما، أما فيما يتعلق ببناء السدود فلابد أن القرطاجيين كان لهم خبرة واسعة فى هندسة بناء السدود وتحديد الأماكن الصالحة لهذا، وتوافرت لديهم معلومات زراعية كثيرة علموها لأبنائهم ليتوارثوها جيلا بعد جيل.

وتحدثنا المصادر عن مملكة نوميديا أنها كانت من المناطق القاحلة والتى اعتاد سكانها عدم الاستقرار فيها، أما فى عهد ماسينسا فقد أصبحت مملكة غنية وعلى درجة عالية من الثراء، فأولاده من بعده ورثوا مساحات واسعة من الأراضى الزراعية التى تنتج كل أنواع المحاصيل وأصبحت من أهم مصادر الغلال فى حوض البحر المتوسط؛ وهنا تجدر الإشارة إلى أن الملك النوميدى كان قد أتم تعليمه فى قرطاجة وتشبع بثقافتها، فهل كانت مسائل الزراعة ضمن أهداف ماسينسا وهو يدرس فى المدينة؟، من الطبيعى انه يدرك كواحد من أبناء الملوك النوميديين أهمية الزراعة ولذلك عمل على تطويرها بعد أن آلت إليه أمور الدولة. وهذا أمر مستحب منه، ثم إنه يدرس فى قرطاجة فلا يستبعد أن تكون الدروس فى الزراعة من الموضوعات المطروحة للدراسة، وخصوصا فى المدينة التى بها موسوعة ماجون عن الزراعة والتى اهتم بها اليونان والرومان، ومن الوارد أيضا أن ماسينسا ربما يكون قد أرسل إلى قرطاجة بعض أبناء النوميديين لدراسة العلوم الزراعية فى قرطاجة على شكل بعثة تعليمية إذا جاز التعبير خلال الفترة موضع الدراسة، وهذا غير مستبعد أيضا، وخصوصا أن الرومان

(1) محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقى فى غرب البحر المتوسط، بيروت 1982، ص116.

واليونان كانوا قد أظهروا اهتمامهم بهذه النوعية من الموسوعات فى قرطاجة وحصلوا على نسخ مترجمة منها.[1]

تعليم الأجانب:

كان ماسينسا شخصية قوية البنيان متعددة المواهب جمة النشاط وقد كان من عشاق مدينة قرطاجة وتشبع بمبادئ حضارتها، وقضى فترة من شبابه فيها حيث تلقى تعليمه، وقضى فترة أخرى مع أبناء قرطاجة فى المعسكرات وقاتل فى سبيلها، فقد كان يقدر أهمية الإفادة من الحضارة القرطاجية فى إقليمه الخاص [2] وظل هكذا إلى أن ألقت به ظروف الصراع السياسى فى شمال إفريقيا فى أحضان الرومان وأصبح من أعداء قرطاجة وقاتل جيوشها غير أنه ظل متعلقا بالحضارة القرطاجية.[3]

وقد احتل التعليم مكان الصدارة بين كل القبائل الليبية وبالأخص النوميدية، والمهم فى هذا الأمر أن تعليم أبناء الملوك كان دائما يتم فى مدينة قرطاجة ومدارسها؛ وهنا تشير المصادر إلى أن ماسينسا أتم تعليمه فى قرطاجة، ظهر ذلك فى الرسالة التى بعث بها هانيبعل إلى ماسينسا وهو يطلب منه التوسط بينه وبين سكبيو (القنصل الرومانى فى الحرب البونية الثانية)، فى هدنة عسكرية مذكرا إياه بتربيته الأولى فى قرطاجة.[4]

وبقدر ما كان الملك يريد موت المدينة الفينيقية من حيث هى قوة سياسية بقدر ما كان متشبعا بثقافتها ومتشبثا بها، ولعله كان ينوى حمل القبائل الإفريقية على استيعاب الحضارة القرطاجية كما استوعبها هو نفسه؛ من ذلك أنه اتخذ لغة قرطاجة لغة رسمية وقد تعلمها وأتقنها منذ صغر سنه، وهذا معناه أن ماسينسا كان يدرس اللغة ويعلم الصبية والأطفال فى مدارسها التى ربما كانت نظامية أو قريبة من ذلك، خصوصا أبناء الأمراء.[5]

---

(1)polyb.xxxvi.16.2-10., Diodorus. xxxii. 16.1., pliny. xviii. xv;xviii.80. ,T.D.Fage. ,op.cit.p182.

(2) محمد بيومى مهران، مرجع سابق، ص 28.

(3) محمد فنطر،يوغرطه، تونس 1984،ص 90. Jamil M.Abun-Nasr,op.cit.p29

(4)Appian.viii.37.

(5) محمد فنطر، مرجع سابق،ص 93. Warmington.B.H.,*Histoire...,op.cit.p292*

وفى إفريقيا كان إشعاع مدينة قرطاجة واضحا إلى درجة كبيرة ويرجع ذلك إلى أن اتصال القبائل الليبية بقرطاجة كان مستمرا، والقسم الداخلى منهم وقع تحت السيطرة القرطاجية وأصبح من مستعمراتها يؤمه التجار لجمع وتوزيع السلع دون أن يخشوا بأسا فقد أمد الليبيون قرطاجة بالعمال كما قدموا الكثير من المرتزقة، وهذا يسهل إلى حد كبير فرص التعليم ونقل المعارف على كل المستويات الاجتماعية، فقد حرص أمراء نوميديا على أن يوفروا لأبنائهم تربية عالية فى قرطاجة وأن يتخلقوا بأخلاق القرطاجيين، ويتطبعوا بطبائعهم فنقلوا عنهم وتعلموا منهم استخدام أشياء كثيرة مثل استخدام الملابس الفاخرة وأخذوا عن نسائهم استعمال الطيوب ولبس الحلى والمجوهرات، كما استقدموا من قرطاجة مهرة المهندسين والرسامين ليتولوا الإشراف على بناء منازلهم وتشييد الأضرحة الجميلة ونقشها[1].

التعليم الصناعى:

بالرغم من المنافسة الشديدة التى تعرضت لها قرطاجة إلا أنها استطاعت أن تحافظ خلال الأجيال المتعاقبة على عدد من الصناعات علمتها أولادها منها صناعة السجاد وبعض الوسائد التى كانت تستأثر بذوق الإغريق، وعموما يمكن القول بأن ما عثر عليه المنقبون يدل على وجود صناعة وطنية نشطة ومتنوعة منذ القرن السادس ق.م [2]. وبناءً عليه نقول إن أصحاب الحرف القرطاجية بجميع أنواعها بصرف النظر عن القدرة على المنافسة، استطاعوا أن يعلموا أبناء قرطاجة كل الوسائل التى تمكنهم من المحافظة على حرفية الصناعة وبقائها فى أيديهم.

كان المتوقع أن نرى أن قرطاجة قد سكّت عملتها فى وقت مبكر من تاريخها التجارى المحموم، ولكن ما حدث هو أنها اعتمدت على مستعمراتها فى هذا الأمر حتى القرن السادس قبل الميلاد، ثم ظهرت عملات من النحاس والذهب[3]. وعندما استقر رأى قرطاجة على استخدام النقد بانتظام اختارت قاعدة النقد البطلمى لنقدها، فقد كانت

(1) اندريه ايمار وجانين أوبوايه، مرجع سابق، ص 63.
(2) نفس المرجع، ص 54.
(3) نفس المرجع، ص 55.

حتى غزو اجاثوكليسAgathocles(311ق.م)لها لا تضرب عملتها للتداول خارج حدود المدن البونية التى كانت تسيطر عليها، لذلك كانت تصنع فى صقلية على النظام الاتيكى وتدفع كرواتب للجند، ومنذ عام 300ق.م وجدت قرطاجة نفسها فى حاجة إلى تغيير نظام النقد المعمول به ليتمشى مع تزايد العلاقات بينها وبين مدن شمال إفريقيا، ولم يكن أمامها أنسب من ضرب عملتها على النظام البطلمى وأخذت فى صنعه فى مدينة قرطاجة نفسها[1]. وظهرت عملات من الفضة ضربت فى قادس وابيزا تنتمى إلى القرن الثالث أيضا وعليها علامات بونية مثل: الفيلة أو النخيل أو الخيول أو صور لقادة من أسرة برقة مثل هاميلقار وهسدروبعل وهانيبعل أو صور الآلهة القرطاجية وبعض القطع التى اكتشفت فى قادس كان على الوجه صورة الإله ملقارت وعلى الظهر صورة فيل، [2] إلا أنها خشنة الصنع، والظاهر أن قرطاجة استعملت فى أسواقها إلى جانب عملتها عملة يونانية أيضا كما تدل على ذلك قطع المسكوكات التى عثر عليها بين الأنقاض، مع أنها لم تكن لتفتقر للمعادن الصالحة لسك العملة مفضلة استعمال السبائك فى المقايضات التجارية، خصوصا إذا كانت المعاملات مع قبائل أقل تطورا. والأمر مرتبط بحرفية الصناعة التى تختص بصناعة النقد القرطاجى الذى هو من أهم الصناعات لدى الدولة، وهنا من الضرورى أن قرطاجة كان لديها ورش لصناعة العملة فيها أمهر الصناع وبالضرورة كان يعاونهم عدد غير قليل من الصبية يمتازون بالأمانة والذكاء وهذه بعض صفات من تكون حرفته صناعة العملة. ومن المؤكد أيضا أن كبار الصناع كانوا قد علموا الصبية حرفية هذه الصناعة، وقد تكون مصنفة ضمن الصناعات التى كانت على درجة كبيرة من الأهمية تجعل الشباب والصناع يعطونها الكثير من الانتباه فى التعليم والصناعة.[3]

ويشير ابيانوس إلى الميناءين التجارى والحربى لهما مدخل واحد من البحر يغلق ويفتح حسب الحاجة، وهناك أرصفة الميناء وأحواض السفن وورش صناعة الحبال والنجارة،

---

(1) إبراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمةج3، القاهرة 1988، ص 46.

(2) Harden.D. op. cit, p 159.

(3) Pirenne.j.,*The tides of History,vol.1*,London 1962.p.207.; Warmington. B.H., op. cit.p. 450.;Seltman.G.,*Greek coins.p.249.*

ثم فى الخلف كانت المنازل والحراس[1] وهذا يعنى أن هذه الورش كان بها مجموعة من الصبية يتعلمون الحرف المتصلة بصناعة السفن والحبال وغيرها، ويمكن أن تكون هذه الورش أشبه بمدارس صناعية أو فنية لأنها متخصصة فى صناعة الصوارى والأشرعة وأخشاب السفن وكل ما تحتاجه البحرية القرطاجية.

ظهرت أهمية التعليم الصناعى فى قرطاجة عندما تعرضت الدولة لظروف قاهرة تتعلق بقرار مجلس الشيوخ الرومانى بإعلان الحرب عليها فى عام 149 ق.م ولما فشل مجلس الشيوخ القرطاجى فى إقناع سقبيو قائد الجيش الرومانى وقنصل روما بالعدول عن القرار الخاص بالحرب، خصوصا أنهم كانوا قد استجابوا لطلب الرومان بتسليم كل الأسلحة تفاديا للحرب، وعندما شعر سكان قرطاجة بأنهم خدعوا من الرومان وأن الحرب لا مفر منها تحولت المدينة إلى مجموعة من الورش لصناعة 100ترس و300 سيف و500 رمح و 1000سهم وعدد كبير من قذائف المنجانيق كل يوم، وبعض القوارب الصغيرة من بقايا الأخشاب التى كانت مخزنة فى الميناء وكانت محل اتهام من ماسينسا وقناصل الرومان على أنها من أجل صناعة السفن الحربية، كل هذا لمواجهة الرومان، والأمر هنا متعلق بالتعليم الصناعى الذى كانت قرطاجة تدرسه لأبنائها لدرجة أن الكل كان له عمل مخصص يقوم به خلال هذا الوقت الحرج، وقد يتبادر إلى الذهن أن الدولة كانت كلها فى حالة دفاع عن النفس وأن هذا أمر طبيعى، نعم إن الكل كان يساهم فى أمر الدفاع ولكن هل صناعة الأسلحة ممكن أن يقوم بها أى شخص غير مدرب التدريب الكافى ؟ الأقرب إلى الواقع أن الكل قد شارك، ولكن هناك على الأقل مجموعة متخصصة فى مثل هذه الصناعات الهامة، ومرة أخرى يفرض التساؤل نفسه، هل تم هذا بدون تعليم سابق فى قرطاجة فى شكل مدارس لتعليم هذه الحرف أو الورش الفنية المتخصصة؟ الجواب على هذا فى ضوء غياب الدليل المادى للمدارس بعد هدم المدينة، أن هذه المدارس أو الورش كانت موجودة بدليل استمرار الدوله فى استخدام هذه الصناعات طوال تاريخها.

---

(1)Appians viii, xiv.96.

أمد مهرة الصناع وأرباب الحرف فى مدينة قرطاجة أسواق البحر المتوسط بالمنتجات وكانت لهم جمعياتهم المهنية التى يتلاقى أعضاؤها فى اجتماعات عامة ويدلون بآرائهم فى كل ما يتعلق بشؤون المدينة[1]، ومن المحتمل أن هؤلاء الصناع كانوا يخبرون الصبية أو صغار الصناع بما يدور أو بما تم فى هذه الاجتماعات، وعليه تتم عملية التعلم من خلال نقل الأفكار من جيل إلى جيل، والتربية على هذا الشكل ممكن أن نسميها التربية المهنية إن صح التعبير حيث تدور المناقشات حول الحرف والسوق والنقل وربما الأجور، والأمر بالضرورة ينتقل إلى الصبية الملازمين للصناع يتعلمون الحرفة ويتدربون على رعاية مصالحهم.

تعليم اللغات الأجنبية:

كان سكان قرطاجة رجال أعمال همهم الوحيد الأرباح المادية وقد كانوا يحسنون لغات كثيرة بحكم الضرورة من غير أن يتظاهروا بذلك فى بعض الأحيان، وكان بيثوس Boethos واحدا من أمهر النحاتين.. قرطاجى المولد إغريقى النسب[2].

وقد أحسن عدد كبير من القرطاجيين استعمال اللغة اليونانية وأجادوها واتخذوا منها أداة طيعة فى أعمالهم التجارية الواسعة وكانت لغة كتابة وتعبير وتفاهم، لدرجة حملت السلطات القرطاجية المسئولة على تحريم استعمال اليونانية على رعاياها، وقد يكون السبب هو الخوف على اللغة الفينيقية من الإهمال من جانب الرعايا فى مناطق التجارة خارج إفريقيا، كما أظهر الناس إعجابهم من أحد الخطباء القرطاجيين فى مدينة سيراكوز فى جزيرة صقلية، وساعدت حالات الزواج والمصاهرة بين الإغريق والقرطاجيين على تعلم اللغة اليونانية، ولدينا عدة أمثلة على رغبة القرطاجيين فى تعلم اللغة اليونانية منها أن هانيبعل درس اليونانية وهو فى أسبانيا على يد معلم اسبرطى يسمى سوسيليوس وضع فيما بعد تاريخا مفصلا لتلميذه، وكذلك كانت الطبقات الثرية فى قرطاجة متأثرة بالثقافة الهلينية قبل الإسكندر بكثير، وهى التى غزت المدن الفينيقية وتغلغلت فيها[3].

---

(1) هارولد لام، مرجع سابق، ص 18.

(2) شارل أندرى جوليان، مرجع سابق، ص 117.

(3) أندريه ايمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام ،مرجع سابق، ص 58.

وتشير المصادر إلى أحد الأمور المرتبطة بالتعليم والثقافة فى قرطاجة وهى الترجمة ونستدل عليها من عدة أمور أهمها ما حدث فى رحلة هانو البحرية التى أشارت إليها المصادر ومنهم بلينى[1] الذى يذكر أن الرحلة تمت فى وقت كانت قرطاجة فى قمة ازدهارها فى القرن الخامس قبل الميلاد، وخلال الرحلة احتاجوا للمترجمين فأخذوهم من ليكسوس، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ليكسوس واحدة من المدن الفينيقية التى تسبق قرطاجة فى الوجود على ساحل شمال غرب إفريقيا، فلماذا أخذوا الترجمة منها ؟هل لأنها أسبق فى التعامل مع القبائل الإفريقية وبالتالى تعلمت لغتهم ؟ والمترجمين الذين أخذهم بحارة الرحلة لم تفصح المصادر عن جنسياتهم، هل هم فينيقيون يعرفون لغات إفريقية؟أم هم أفارقة يعرفون اللغة القرطاجية؟ ورغم صمت المصادر فيما يخص جنسية المترجمين إلا أن قيادة الرحلة تصرفت حسب احتياجاتها فى المشروع الذى تقوم به.[2]

والأمر متعلق بنوع الترجمة أو بالأحرى اللغة المراد ترجمتها ويبدو أن الاهتمام بتعلم اليونانية واللاتينية أنساهم إلى حد ما تعلم لغات أخرى مثل اللغات الإفريقية أو بعض اللغات الخاصة بقبائل أوربية، فقد كان هانيبعل القائد القرطاجى كثيرا ما يحتاج إلى المترجمين وهذا أمر منطقى، وخصوصا انه يقود أعدادا هائلة من الجنود من جنسيات كثيرة ومتنوعة، لكن لا يوجد أى إشارة إلى وجود مدارس لتعليم اللغات الأجنبية غير اليونانية واللاتينية.

مناسبة أخرى تبين إلى أى مدى كان تعلم اللغات الأجنبية على درجة كبيرة من الأهمية، فالظروف التى كانت فيها قرطاجة فى الحرب البونية الأولى وانتقال الحرب إلى أرض قرطاجة دفعها إلى الاستعانة بالقائد اليونانى اكسانثيبوسXanthippusلتدريب

(1)Pliny.II.169.

(2)(Et Hanno Carthaginis potential florente cireumvectus a Gadibus ad finem Arabiae navigationem eam prodidit scripto,sicut ad extera Europae noscenda missus eodem tempore Himilco).Pliny.II.169.

والنص يشير إلى أشياء كثيرة منها الدوران حول إفريقيا للوصول إلى الجزيرة العربية ولكن الرحلة وصلت فقط إلى السنغال أو خط الاستواء، كما يشير النص إلى خروج هيملكون فى الوقت ذاته لكشف شاطئ أوربا على المحيط.

الجيش[1]. والأمر هنا مرتبط بالترجمة التى يجب أن يستمع إليها الجنود، وتشير الدراسات إلى أن قرطاجة كانت تهتم بهذه النقطة وقد تكون هناك مدارس لتعليم اللغات الأجنبية من بينها اليونانية فالقائد المدرب لغته يونانية فهو اسبرطى والجيش الذى يدربه خليط من أجناس كثيرة فكان من الضرورى أن يكون هناك من يترجم للجنود؛ و عندما تكرر الموقف واستعانت قرطاجة بالأجانب فى تكوين جيوشها فى أسبانيا كان لدى القيادة العسكرية مجموعة من الضباط ترافق الجيش تنحصر مهمتهم فى أنهم يكونوا متأهبين دائما للعمل كما أنهم كانوا يعملون كتراجمة لهذا الجيش متعدد اللغات [2]، والموقف بهذا الشكل يشير إلى ضرورة وجود مدارس لتعليم اللغات الأجنبية فى دولة تعتمد على الأجانب فى جيوشها بشكل أشارت إليه كل المصادر التاريخية.

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن تعلم اللاتينية كان من الأمور الواضحة التى نتعرف عليها فى مناسبات كثيرة نظرا للعلاقة بين روما وقرطاجة ففى أحداث الحرب البونية الثانية حدثت محاولة من جانب هانيبعل لإنهاء الخلاف وأن يتنازل سكبيو(الذى عرف فيما بعد بسكبيو الإفريقى بعد هزيمته لهانيبعل)عن فكرة الحرب لكنه رفض، وتم اللقاء وألقى هانيبعل التحية على عدوه وتقبل منه التحية عند حديثه أيضا، لكن بوليبيوس الذى أرخ للحروب البونية وكان مرافقا لسقبيو وصديقه لم يشر إلى أن الحديث كان قد تم بواسطة مترجم، وهذا لا يعنى غياب المترجم وربما يكون بوليبيوس قد أغفله، ومع ذلك من الوارد وربما يصل إلى درجة التأكيد أن كل طرف كان قد تعلم لغة الآخر نظرا لطول مدة التعامل بينهما [3].

وكان يوجد فى قرطاجة أعداد كبيرة من الأجانب ليس فى مجال الجندية فقط وإنما فى مجال التعامل التجارى فقد كان يأتيها التجار من كل المناطق تقريبا من المصريين والإيطاليين والاتروسك فضلا عن الليبيين بمختلف قبائلهم والقادمون من الصحراء وغيرهم، وهؤلاء جميعا يتعاملون فى أسواق المدينة، والتساؤل هنا عن كيفية التعامل فيما بينهم، وخصوصا أن عدد اللغات كبير على حسب المتعاملين بها، الأقرب إلى الواقع أن

(1)Warmington.B.H.,op. cit.p.228.

(2) هارولد لام،مرجع سابق، ص 69.

(3)Polyb.xv.5.4.;xv.8.1-14.

القرطاجيين كانوا يعرفون بعض اللغات بحكم التعامل الدائم مع القبائل الليبية والنوميدية، أما باقى اللغات فقد يكون انتقالها إلى التجار بواسطة مترجمين احترفوا هذه المهنة وهذه تحتاج إلى خبرة ودراية باللغة، وربما يكون تعلم هذه اللغات قد تم على يد مجموعة من المعلمين من أصحاب اللغة ذاتها استعانت بهم الدولة أو يكون طول إقامتهم أعطاهم الفرصة لاحتراف الترجمة أو تعليم التجار اللغة المراد تعلمها[1].

تعليم البنات:

أشارت المصادر إلى الأميرة صافونيسبا[2] Saphonisba ابنة هسدروبعل بن جسكو[3] التى كانت مخطوبة لماسينسا ثم تبدل الحال وتزوجها سيفاكس وعلى أثر ذلك انحاز ماسينسا إلى الرومان ضد قرطاجة، وتجدر الإشارة إلى أن المصادر اهتمت ببيان الأحوال الثقافية لها على اعتبار أنها واحدة من الشخصيات التى شاركت فى صنع الأحداث فى شمال إفريقيا خلال هذه الفترة، وقد يكون حال الكثيرات من بنات الأسر الأرستقراطية مشابه لما تمتعت به صافونيسبا ولكن لوُضعها المتميز فى أحداث هذه الفترة اهتم المؤرخون بالكتابة عنها أكثر من غيرها، ولو حدث وتناول العلماء حالات كثيرة فى المجتمع القرطاجى لتعرفنا على شريحة من شرائح التعليم عندهم وهو تعليم البنات ربما كان بشكل أكثر وضوحا عما نحن أمامه،وتشير المصادر إلى أن الأميرة كانت على قدر عال من الجمال ورشاقة الجسم، ولما كانت فى ريعان شبابها تلقت تعليما ممتازا فى الموسيقى والأدب ،وكانت مليحة الوجه لدرجة كبيرة وكان صوتها يكفى لسحر أى شخص.[4] وجدير بالاهتمام هنا ما أشارت إليه المصادر عن عدة مجالات تعليمية على درجة كبيرة من الأهمية تخصصت فيها كليات فى وقتنا الحاضر،أول هذه الأمور هى الرشاقة التى أشارت

---

(1)Jamil M.Abun-Nasr,*Ahistory of the maghrib*,Cambridge.1971.pp17,21.; Harden. D. op.cit. p: 70.

(2) وردت صيغة أخرى لاسم صافو نسبا عند ورمنجتون على هذا الشكل Safanbaal الذى يشير إلى وجود اسم الإله بعل كمقطع من اسم الأميرة، وتجدر الإشارة إلى أن ورمنجتون ربما يكون استند فى هذا على مصادره التى رجع إليها راجع: Warmington.B.H.op. cit.273

(3Poblyb.xiv.1.

(4) Dio's Roman history.xvii,Zonaras.9.11.

إليها المصادر و تعطى فكرة عن التعليم الرياضى أو كما تسمى الآن التربية الرياضية وربما كانت تمارسه بنفسها ولا يستبعد أن تكون قد تلقت فيه تعليما منتظما على يد مدرسين أو مدرسات وهى إبنة الطبقة الحاكمة فى الدولة،المجال الثانى من مجالات التعليم هو الموسيقى وهى التى تعد من مفردات الثقافة الراقية. أما الأدب وهو العنصر المكمل للثقافة داخل القصر الملكى يعطينا صورة صادقة عن مستوى التعليم عند الأسر القرطاجية الحاكمة،لكن يبقى أمامنا السؤال:هل المعلمون من القرطاجيين أم من الإغريق؟.. لم تذكر المصادر عن ذلك شيئا، ولكن هناك إشارات فى مواضع أخرى وهى فترة التربية فى مرحلة الطفولة و التى تلقاها أبناء هاميلقار بارقة فى القصر الملكى القرطاجى كانت على يد معلمين من اليونانيين،ويبدو أن الطبقات الراقية كانت تستعين بالأجانب ومنهم اليونانيين فى تعليم الأبناء القراءة والكتابة.

التربية الدينية:

حرصت قرطاجة على إقامة مجموعة من المعابد لنفس الآلهة الموجودة فى مدينة صور حيث كانت المدينة الأم لقرطاجة كما هو معروف. وكانت أخص عبادة بها هى عبادة بعل حامون وتانيت واشمون وملقارت، وكانت فى العصر الرومانى تعرف بأسماء رومانية: فكان بعل حامون Ball Hammonهو ساتورنSaturnوتانيتTanitهى كاليستس Caelestisواشمون Eshmun هو اسكولابيوسAesculapiusوميلقارتMelqartهو هرقليسHercules، ومما لا شك فيه أن قرطاجة تركت أثارا عميقة فى إفريقيا من حيث الدين، وهذا واضح حتى فى العصر الرومانى حيث عرفت الآلهة القرطاجية بأسماء رومانية لكنها احتفظت بخصائصها الأصلية[1].

كانت قرطاجة حريصة على تربية الأبناء تربية دينية منذ السنوات الأولى من أعمارهم ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال أسماء بعض المشاهير فى الأسر القرطاجية، وكانت أسماء الرجال والنساء فى هذا الأمر سواء، فاسم هسدروبعل يعنى(حليف بعل)وهانيبعل يعنى(محبوب بعل) وهاميلقار يعنى(خادم ميلقارت). أما اسم باتبعلBatbaal يعنى

(1) Jamil M.Abun-Nas.,op.cit.p22. كونتنو.ج مرجع سابق ص127؛ شارل أندرى جوليان ،مرجع سابق ص 126؛ Harden.D: op. cit. p. 68.

(ابنة بعل)، وهذه الأسماء تشير إلى قوة التيار المتدين عند القرطاجيين الذين حرصوا على تربية الأبناء تربية دينية من خلال ارتباط أسمائهم باسم الآلهة. [1] وهذه الآلهة سالفة الذكر فى قرطاجة وغيرها من البلاد محل التعامل كان الصغار والكبار على دراية بها، فنص الرحلة البحرية التى قام بها هانون لكشف سواحل غرب إفريقيا تم وضعه فى معبد كرونوسChronosوالنص كان معروضا للاطلاع عليه داخل المعبد [2] . وبالتالى يمكن تفسير ذلك التصرف من جانب الدولة على أن الرحلة كانت محل تقدير كبير ولم يكن أمامهم أفضل من المعبد ليضعوا نص الرحلة فيه، والأمر هنا مرتبط بقدسية المكان التى يقدرها كل من يدخل المعبد من الصغار والكبار، والقسم الذى حرص القائد هاميلقار بارقة أن يسمعه من ابنه هانيبعل وهو فى مرحلة الطفولة والخاص بعداوته للرومان كان قد تم فى معبد ملقارت [3]، ولما تحمل الابن المسئولية وقاد الجيش كان يتنقل إلى أماكن كثيرة حسب ظروف القتال ومعه ذخائره الدينية وصنم الترانيم [4]. أما الأضاحى التى كانت تقدم إلى الآلهة فى المعابد فكان الأطفال يرون الطقوس المقامة داخل المعابد أثناء تقديم هذه الأضاحى، وبدون شك كانت مثل هذه الأمور تغرس فى نفوس الأطفال نوعا من العادات الدينية التى كانت تصاحبهم فى حياتهم، وهو ما يسمى بالتربية الدينية فى الوقت الراهن.

الخاتمة :

كانت قرطاجة إذن واحدة من أهم الدول فى غرب البحر المتوسط، واستطاعت أن يكون لها علاقات قوية مع اليونان والرومان، تغيرت أشكال هذه العلاقات.مع تغير الظروف السياسية والاقتصادية فى المنطقة ولكنها فى الوقت ذاته كانت صاحبة صفة ثقافية فى حوض البحر المتوسط، فالثقافة القرطاجية كانت معروفة لدى دول العالم القديم فى الفترة التى عاشت فيها قرطاجة وما بعدها.ويلاحظ أن النقوش البونية كانت قد أمدت الباحثين بالكثير من المعلومات عن الثقافة القرطاجية، كذلك كانت كتب

(1)Herm.G.,op.cit.pp.196-197.

(2)Harden.D.op.cit.p.78.

(3)Livy.xxi.2.;Gsell.G.op.cit.viii.p.252.

(4) هارولد لام،مرجع سابق، ص 69.

الموسوعات البونية والمصادر التاريخية اليونانية منها والرومانية هى أهم مصادر المعلومات عن التعليم فى قرطاجة، وحقيقة الأمر أن الثقافة والتعليم فى قرطاجة من الأمور المتلازمة فكانت الإشارات عن التعليم والمكتبات ودور الدولة فى التعليم والتدريب وتعليم البنات والترجمة والنشاط الثقافى كلها أمور مترابطة لايمكن الفصل بينها، وقد تكون ظروف الدولة وندرة المصادر الوطنية القرطاجية هى السبب فى هذا.

وقد أشارت المصادر إلى مناسبات كثيرة ظهرت فيها كتب بونية سواء كتابات سجلها أشخاص من قرطاجة أومن الدول المجاورة، كذلك كانت هناك الموسوعات العلمية التى كتبت بالبونية والفينيقية وتمت ترجمتها إلى اليونانية واللاتينية، وهذه الترجمة من اللغة البونية إلى غيرها من اللغات كانت بإشراف حكومى بل بإشراف أعلى جهاز سياسى فى الدولة مثل مجلس الشيوخ الرومانى مثلا، وهذا يؤكد على أهمية الموضوعات التى تمت ترجمتها، ومن جانب آخر تأكيد على أهمية الثقافة القرطاجية.

كذلك كانت المكتبات البونية التى أهديت إلى أمراء شمال غرب إفريقيا بعد تدمير قرطاجة فى عام 146 ق.م من أهم الأدلة على ارتفاع قدر الثقافة فى قرطاجة فى الفترة موضع الدراسة فلم يبق الرومان على شيء إلا المكتبات، وهذا دليل على ذلك فهم الذين يعرفون قيمة كتب قرطاجة فعندهم ترجمة لكتب ماجون فى الزراعة، وعندهم رحلة هانون فى الملاحة والكشف البحرى، وعندهم كتب همبسال عن تاريخ وجغرافية إفريقيا وأشياء كثيرة فى هذا المجال، فقدروا قيمة الكتب وما فيها من معلومات.

أما عن التعليم فالواضح أن قرطاجة كانت تهتم بهذا المجال ولكن الفرصة أمامنا غير كاملة لدراسته دراسة مستفيضة، والسبب معروف وهو غياب المصادر الأصلية القرطاجية، فمن خلال الإشارات التى وردت هنا وهناك فى مصادر الفترة تبين أن الدولة كان لديها اهتمام بالطفولة من حيث تعليم القراءة والكتابة والثقافة الفينيقية واليونانية، كما كان لديها اهتمام كبير بالتربية الدينية، أما التعليم العسكرى أو التربية العسكرية فكانت القطاع الكبير الواضح لدى حكومة الدولة وهذا لا يعنى أنها أهملت باقى الفروع وإنما ما فرض على الدولة من ظروف عسكرية ضاغطة لمواجهة اليونان والرومان لسنوات طويلة أجبرها على الاهتمام بالجانب العسكرى حتى تستطيع أن تدفع عن نفسها الخطر، ومن

أجل ذلك نراها تعلم الأبناء الصغار وتدربهم على حمل السلاح وتستعين بالخبرات العسكرية الأجنبية.

وفيما يتعلق بالتعليم الزراعى فكانت الصورة واضحة من خلال ما قدمه ماجون فى موسوعته عن الزراعة والتى نقلها اليونان والرومان، وقد كان من الطبيعى أن يتدرب الأبناء ويستفيدوا من خبرة الآباء ومنهم ماجون الذى سجل لهم خبرته العلمية فى مجال الزراعة وتربية الحيوان، وما أسفرت عنه جهود الملك النوميدى ماسينسا من تقدم فى المجال الزراعى بعد أن تولى قيادة المملكة يشير إلى أن ماسينسا كان قد استفاد بدون شك من علوم قرطاجة فى الزراعة أثناء فترة تعليمه فيها.

استطاعت قرطاجة أن يكون لديها فريق كبير من الصناع فى حرف كثيرة تفى بحاجة الدولة فى أى وقت وفى كل المجالات، وتشير السنوات الطويلة التى خاضتها قرطاجة فى حروب ضد اليونان والرومان وما قدمته طبقة العمال والحرفيين من أدوات وأسلحة إلى الجيش وإلى كل السكان يدل بدون شك على القدر الهائل من المنتجات التى شهدتها الدولة، ورغم أهمية ما سبق الإشارة اليه إلا أن الأهم منه هو تعاقب الأجيال على مر السنين فى التدريب والتعليم للشباب والصغار الذين سدوا احتياجات الدولة من كل الأغراض ولولا أن قرطاجة كان بها مدارس لتعليم الصبية والشباب على مثل هذه الأشياء لما استطاعت أن تصمد أمام الدول المنافسة لها.

وعموما يمكن القول إن قرطاجة كانت تمتلك مقومات الفكر الثقافى الذى ظهر عند عدد من الشخصيات المثقفة وفى شكل عدد هائل من المكتبات والكتب والرسائل العلمية والأساليب التربوية فى مختلف فروع المعرفة.

المصادر والمراجع

المراجع العربية والمعربة:

ـ إبراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، القاهرة 1988.

ـ أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، القاهرة 1984.

ـ أندريه ايمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ترجمة فريد داعر وفؤاد أبو ريحان، بيروت 1994.

ـ جورج سارتون،تاريخ العلم،ترجمة لفيف من العلماء بإشراف إبراهيم بيومى مدكور وآخرين، القاهرة 1978.

ـ رشيد الناضورى، المغرب الكبير، ج1، بيروت 1981.

ـ سليمان عبد الرحمن الذييب، الاوجاريتيون والفينيقيون، الجمعية التاريخية السعودية، العدد السابع عشر، الرياض 2004.

ـ شارل أندرى جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة، تونس 1985.

ـ عبدالرحمن بدوى، خريف الفكر اليونانى، ط3، القاهرة 1959.

ـ عبدالعزيز حجازى، البحرية القرطاجية دراسة فى دورها الحربى ومقوماته وعلاقاته، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة 1985.

ـ عبد اللطيف البرغوتى، التاريخ الليبى القديم، بيروت 1982.

ـ كونتنو.ج.،الحضارة الفينيقية،ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة،القاهرة 1948.

ـ محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت 1984.

ـ محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقى فى غرب البحر المتوسط، بيروت 1982.

ـ محمد بيومى مهران، المغرب القديم،الإسكندرية،1990.

ـ محمد فنطر، يوغرطه، تونس 1984.

ـ مصطفى كمال عبد العليم، دراسات فى تاريخ ليبيا القديم، بنغازى 1986.

ـ هارولد لام، هانيبال، القاهرة 1962.

ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، م 3 ج 1، القاهرة 1972.

المصادر:

Loeb Classical Library:
Aristotle.
Appianus.
Dio Cassius.
Diodorus Siculus.
Livius.
Plinius.
Polybius.
Sallustius.
Zonaras.

المراجع الأجنبية:

Brian Caven ,*The Punic wars* ,London 1980.
Desanges.J.,*The Proto-Berber.General history of Africa.*2. Unesco 1981.
Gsell.S.,*Historie de L'Afrique du nord.*Paris 1972.
Harden.D.,*The Phoenician.*London 1980.
Herm.g.,*The Phoenicians,Translated by Caroline Hillier.* London 1975.
H.L.Havel.B.A.,*Ancient Rome.*London 2003.
Jamil M.Abun-Nasr,*AHistory of Maghrib,*Cambridge 1971.
Maria.E.A.,*The Phoenicians and the West.*Cambridge 2001.
Maurcie Sznycer,*La Litterature Punique Carthage,Archeologie Vivante,* Paris 1969.
Mazard.j.,*Corpvs Nvmmorvm Nvmidian Mavretaniaeqve,* Paris 1958.
Moscati.,*The world of the Phoenicians.*London 1968.
Pirenne.J.,*The tides of history.vol.1.*London 1962.
Seltman.G.,*Greek coins.*,Cambridge 1954.
T.D.Fage.,*Cambridge history of Africa vol.2.*Cambridge 1973.
Warmington.B.H.,*Historie et civilization de Carthage* Paris 1961.,*The Carthaginian.,General history of Africa vol.2.*Unesco.1981.

❊ ❊ ❊